إمارة ومملكة المحس الإسلامية

٨٦٦ - ١٩٢٢ م

وأثر المهاجرين منها الى وسط السودان ديموغرافياً وثقافياً

كمال الدين أحمد الشيخ البشير الفضل


جبل سيسب (غرب دلقو)



كمال الدين أحمد الشيخ البشير الفضل الكباني المحسي

إبن جزيرة توتي الباحث في تاريخ السودان الوسيط و تاريخ المحس

الاسلامي و النسابة الاديب المغترب



مهجر أهالي جزيرة توتي جنوب جبل سيسب أو محل سعد المعروفة ب(قامو)

رقم الإداع (٢٠١٤/٣٢١م)

ردمك ٦-٢٠٨-٣-٩٩٩٤٢-٩٧٨ ISBN

إمارة ومملكـــة المحـــس الإســـلامية

٨٦٦ — ١٩٢٢ م

وأثر المهاجرين منها الى وسط السودان
ديموغرافياً وثقافياً

٢٠٠٩-٢٠١٤

إمارة ومملكـــــة المحـــس الإســـلامية

٨٦٦ – ١٩٢٢ م

وأثر المهاجرين منها الى وسط السودان
ديموغرافياً وثقافياً

كمال الدين أحمد الشيخ البشير الفضل

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر – السودان

٩٦٢.٤٢ كمال الدين أحمد البشير الفضل ، ١٩٥٢م –

إ ف. إ

إمـــارة ومملكـــة المحـــس الإســـلامية ٨٦٦م – ١٩٢٢م/ كمـــال الـــدين أحمـــد البشـــير الفضـــل. –

الخرطوم : ك. أ. البشير الفضل ،٢٠١٤

٢٠٠ ص ؛ ٢٤ سم.

ردمك ٦-٨-٢٠٨-٣-٩٩٩٤٢-٩٧٨

١. السودان – تاريخ – العصر الحديث – الممالك الإسلامية.

٢. السودان – تاريخ – العصر الحديث ، ٨٦٦ – ١٩٢٢م.

أ.العنوان.

إهـــداء

الى روح جدي أستاذ جيل النهضة والإستقلال وأستاذ أساتذة التاريخ بالسودان، العالم العلامة الإسلامى اللغوي والمؤرخ

أبو أحمد الشيخ البشير الفضل الماحي الكباني المحسي العلامة النحوي المؤرخ

أهدي بحثي الذي كان من نتاج تلك الجينات التى لا تشبع من الفائدة والإفادة وأقول مما قاله عنه أبناءه الطلاب - وهو كثير - قولا يتمثله جميع طلابه وأكتفي به وقد أثر عن سعادة الشاعر والأديب والسياسى السودانى المعروف المرحوم محمد أحمد المحجوب.

وهو (إن الشيخ البشير الفضل هو أفضل من أخذت عنه العلم) أو قالها بعبارة (أفضل من علمنى) وما التقى بي أحدهم إلا روى لي طرفة عن أسلوب تربية وتعليم الشيخ البشير رحمه الله لطلابه تمثل قمة الإعجاب والإمتنان .

ثم بعده الى العالم العلامة الناقد، الشاعر والأديب الدكتور الصديق عمر الصديق، مدير معهد البروفسير عبد الله الطيب بجامعة الخرطوم لدفعه لي لمواصلة التعليم العالي وتشجيعي المستمر للكتابة ، إثراء للثقافة فى وطنه وهذا ديدنه فى دفع المواهب فى شتى المعارف والفنون بحسه المبهر وذوقه الأكاديمي العالي في رعايته للثقافة العامة وتوثيقها. فج زاهما الله عني خير الجزاء .

كما أهديه أيضا الى أساتذة كانوا عونا لي ومرجعية ومراجعة وتدقيق ونقاش وإجازة لهذا البحث وعلى رأس المجموعة سعادة البروفسير على عثمان محمد صالح وسعادة الدكتور يحيى فضل طاهر وسعادة الدكتور عمر يوسف الطيب .

وجنوداً مجهولين كانوا عوناً لي ويتمنون لي التوفيق في مقدمتهم سعادة البروفسر عز الدين عمر موسى الذي كان من الطبيعي أن يكون المرجعية والمتابعة لولا وجوده خارج البلاد بصفة دائمة ولا يخلو تواصله معي من شذرات وإفادات هامة كان لها الأثر الطيب علي وعلى البحث في ذات الوقت فله الشكر ، والأستاذ محمد الأمين أحمد علي (سيد الحوش) والأستاذ نعمان حسن أحمد خوجلي والأستاذ حسين الفضل والأستاذ قيس إبراهيم أحمد علي، وسعادة حسان عبد الرحمن علي وسعادة إسحق محمد إبراهيم النور وسعادة حمزة قاسم موسى وكلهم من باحثي ومدوني ورواة تاريخ المحس وبقية مجموعة المهتمين بتدوين تاريخ المحس وجزيرة توتي والشباب المهتمين بتأريخ وأنساب المحس تحت قيادة الأستاذ الشاب محمد سيد حسن أرباب والذي كان لإجتماعاتهم ولقاءاتهم الأثر الإيجابي في تقدمي بهذا البحث والشاب النسابة أبوعامر الطاهر محمد الطاهر الكنزي ، والأستاذ ابوبكر محمد أبوعكر الذي قام بالطباعة اليدوية والإخراج.

وشرفني جداً ورفع من قيمة هذه المادة بأن يكون الجميع المرجعية والمراجعة لهذا الكتاب والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

كمال الدين أحمد الشيخ البشير الفضل

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الأستاذ/ كمال الدين أحمد الشيخ البشير الفضل المحسي «مؤرخ شعبى» مجتهد وهو دقيق الملاحظة وحريص فى جمع المادة وذو علم واسع فى أنساب المحس بمختلف مشاربهم وفروعهم في كل أنحاء السودان. وقف على هذا العمل وبذل فيه الكثير من الوقت والجهد والمال لمدة فاقت على خمس سنوات خَبِرْتُه فيها كلها وقد أعجبنى بجانب صفاته التأريخية المذكورة أعلاه تصميمه الكامل لإخراج كتاب عن تاريخ المحس في وسط السودان وعن تأثيرهم الإسلامي الفعلي لكل التطورات المتلاحقة التي قامت وسط السودان بعد سقوط مملكة مروي الشهيرة .

نحن في حاجة كبيرة لمثل هؤلاء المؤرخين الشعبيين الذين يستطيعون الوصول لمصادر التاريخ الشفاهي بقدرة تفوق مقدرة الأكاديميين إلى ذلك كما أن كتابه التاريخ الإثنى (Ethno-History) أصبح الآن من أهم مراحل كتابة تأريخ السودان خاصة وكثير من الدول العربية والإسلامية والأفريقية عامة حيث أن المؤرخين المتخصصين الذين كتبوا تأريخ المجموعات الإجتماعية في بلادنا هذه لم يستطيعوا التوغل في أصل تأريخ هذه المجموعات إما لعدم معرفتهم للغاتها أو لعدم قدرتهم للوصول للمصادر الحقيقية فالتاريخ لأفراد هذه لمجموعات هو الأصل وهو الإنتماء والعزة، ولا يعرف هذه القضايا الثلاث إلا أهلها.

من هذه المنطلقات أعلاه ومن معرفته لحاجتنا الماسة جداً لكتب علمية في التأريخ الإثني للمجموعات التاريخية السودانية ومن أهمها مجموعات المحس، أحيي الأستاذ كمال على هذا الجهد العظيم وأحرض كل المهتمين بتاريخ السودان على قراءة هذا الكتاب والتفكر فيه بإمعان علَ ذلك يهديهم أولاً على البحث المضنى في تأريخ مجموعاتهم الإثنية ويعرفهم ثانياً على تاريخ هذه المجموعة التى ظهرت على مسرح التأريخ السوداني منذ أقدم العصور وما زالت تتفاعل وتعطي وتأخذ في كل الأحداث التاريخية الكبرى في البلاد.

إن الحقيقة التاريخية في معدنها هي الحقيقة التي يؤمن بها المؤرخ ويعمل على تحقيقها تحقيقاً علمياً دقيقاً وقد فعل الأستاذ كمال التحقيق المضنى والتفصيلي الدقيق للحقيقة التى يؤمن بها ويشاركه فيها لفيف كبير من علماء تاريخ الإثنيات السودانية، كما يقاسمه الشغف والحب والتوق إلى معرفة هذه الحقيقة ملايين من الذين ينتسبون إلى المحس ويكفى أنهم جميعاً يساكنون بقية السودانيين في جميع أجزاء الوطن الآن .

بروفسير علي عثمان محمد صالح

أستاذ الآثار والتأريخ الوسيط

جامعة الخرطوم

٢٢أبريل ٢٠١٤

مقدمة الطبعة الأولى

لا شك أن أول ما حداني للكتابة في موضوع مملكة المحس الإسلامية هو أن خبر هذه المملكة لا يكاد يعرف إلا من النذر اليسير من أهل هذه المملكة فضلاً عن غيرهم وأن ما شجعني للمضي قدماً في ذلك هو إنجازات هذه المملكة وأثر المهاجرين منها الى وسط السودان ديموغرافياً وثقافياً.

إن العصر الوسيط في السودان مليء بالأحداث وهو عهد الممالك والإمارات العربية الإسلامية في مختلف أنحاء السودان إلا أنه للأسف لم يعنى أهل التأريخ بهذه الممالك ولم يحفلوا بها فظلت ممالك منسية في تأريخ السودان .

لم يكن هذا ما شجعني وحسب بل كان هناك سبب وجيه له آثاره التأريخية حقائقاً ودلالات وهو الوجود المحسي الإسلامي القديم في إقليم الخرطوم والذي كان له الأثر الكبير في التشكيل الديموغرافي والثقافي والتأريخي والسياسي وحمل في طيات زمانه حمد بن مشيرف ومحمد وحاج أبناء إمام بن عبد الله بن سليمان في الحمدلاب وأم قحف وأبوعشر قبل الشيخ إدريس بن محمد الأرباب بالعيل فون ثم مدرسة أرباب العقائد للعلوم الإسلامية ومسجده الجامع في قرية أرباب العقائد التي ما لبثت حتى عرفت بخرطوم توتي تلك الجزيرة التي قدم منها أولاد مرزوق بن فلاح لبر المحس وكذا الشيخ أرباب العقائد أحمد بن علي بن عون بن صبح بن فلاح ثم من بعد ذلك

أصبحت خرطوم السودان والعاصمة السياسية التي صمدت تلك القرون مستحقةً لذلك الإمتياز ولازالت تستشرف المستقبل بثقة وأمل كونها من أجمل عواصم العالم وهي تستقبل جزيرة توتي بجهة الشمال لتكون بين يديها وهي تيمم شطر النيل الخالد غير متنكرةٍ لفضلها ولا متنكبةً طريقها حيث إرتبطت بها بكبري يمثل أرقى أشكال الإبداع والحميمية والتلاحم والحب وهي تحتضن النيلين الأزرق والأبيض ليلتقيان بجنبها الغربي عند مقرن النيلين ليبدأ نهر النيل إنطلاقه من رأسها الشمالي متدفقاً خيراً وبركة على السودان الشمالي وأرض الكنانة أخت بلادي الشقيقة مصرا .

كمال الدين أحمد الشيخ البشير الفضل

تمهيد

كنا ولا زلنا نتتبع تاريخ جزيرة توتي وأنسابها منذ أواخر الستينات من القرن الماضي، ونشط ذلك الفكر في بداية التسعينات من نفس القرن حيث كنا دائمي البحث عن أهلنا في الشمال السوداني وعن كيفية الوصول والتواصل معهم، إلا أننا كان يشغلنا تدوين الأنساب الخاصة بأهالي توتي وما حولها في منطقة الوسط، مما أضعف المعلومة التاريخية وأفقر الفكر عن تاريخ الجزيرة نفسه، بل وتاريخ المحس. إلا أننا في مطلع القرن الجديد بدأنا بحثنا عن الهوية والوجود والأصول، وبدأنا بتدوين المعلومات التاريخيه عن محس الوسط وعلاقتهم بمحس الشمال. والتف المهتمين بتدوين تاريخ المحس ببعضهم البعض حول هذا الموضوع من توتي والعاصمة المثلثة والعيلفون، وتشكلت نخبة لا بأس بعددها إذ يربو على الثلاثين وكلهم من المهتمين الذين لهم في ذلك معلومات متفرقة بين مكثر ومقل، وقد عقدنا عدة إجتماعات ومحاضرها تحكي عن تفتح في الذهن والعقلية، ورغبة قوية نحو هذا البحث الجليل، وبيننا خبراء في الرواية وأكاديميين على مستوى عالي وطلبة وخريجين وغيرهم، وكانت إجتماعاتنا مثمرة ونتاجها بالغ الأهمية إذ تداولنا فيما بيننا المعلومات المختلفة وملكناها بعضنا البعض ورؤانا المختلفة كل حسب علمه وتخصصه وخبرته، لنبدأ البحث المنشود عن تاريخ المحس في السودان وأثره الإجتماعي والإقتصادي والسياسي والديني على مختلف مناطقهم. وقد تشكلت في سبيل ذلك مجموعات مختلفة،

أهمها ذلك المركز المسمى بمركز توتي للتوثيق والذي تنادى له أبناء المحس في العاصمة المثلثة والذي كان دوره أن تصب فيه كل المعلومات التي نملكها من رواية ووثائق مخطوطة او مسجلة بالصوت او الصورة او الإثنين معا، وجمع الوثائق من دواويننا التي كانت تدير المناطق المختلفة للمحس، ننشد في ذلك ان يتاح لأحد ابنائنا الأكاديميين القيام بهذا البحث، بل توصلنا الى ما هو أبعد من ذلك، أن عرض المركز ان يقدم الدعم اللازم لأحد ابنائنا للقيام بذلك .

وكنت بعد أن انتهيت من كتابي هذا قد لفت نظري البروفسر علي عثمان محمد صالح رئيس قسم الآثار بجامعة الخرطوم سابقاً ولازال يعمل بجامعة الخرطوم كأستاذ لهذه المادة والذي أولى بحثي وكتابي العناية القصوى الى كتاب تم نشره حديثاً وهو :-

(السودان الوعي بالذات وتأصيل الهوية) تأليف الدكتور أحمد الياس حسين وذلك للاستفادة منه فيما تحدث عنه من ديموغرافية الوسط في الفترة التي إستهدفتها وقد أثار إهتمامي وإعجابي وأسعدني كثيراً تحقيق الأستاذ الدكتور أحمد الياس حسين وسعة إطلاعه وخبرته في حديثه عن ديموغرافية السودان المعروف بحدوده الحديثة وأعني قبل فصل الجنوب وما عناه ذلك من تأصيل للهوية السودانية وبالرغم من أنه في بعضها لم يصل الى نهايات إلا أن السيناريو الذي انتهجه كان كافياً لقيادة محكمة وواعية الى حيث إنتهى ليستند من يبحث بعده على أرضية صلبة للإنطلاق الى ما بعد ذلك، ولو كان قد صدر كتابي عن مملكة المحس الإسلامية قبل صدور كتابه لكنت قلت أنه إستجاب الى أحد مطالب كتابي وهو البحث والتفصيل في ديموغرافية وسط

السودان ولكن أستاذنا الدكتور أحمد الياس جعل البحث شاملاً بما يمكن من معرفة هوية السوداني عموماً وخاصة سكان الوسط، وربما تقاربنا في فهم أن تشكيل النسيج الإجتماعي الذي شكل الهوية السودانية لم يبدأ مع دولة الفونج حيث توهم الكثيرون ولكن دولة الفونج بوتقة ساعدت في تحقيقها وإظهارها .

هذا وحيث أن الجزء الخاص ببحثي هو هوية المحس المسلمين الذين شكلت هجرتهم من أرض المحس في الشمال السوداني الى أواسط السودان الحالي في فترة الثلاثة قرون الميلادية الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر أثر ثقافي وديموغرافي لا زالت نتائجه واضحة على أرض الواقع الآن وأن موضوعي هذا يحتم علي ذكر تحرك المجموعات العربية في ذات التاريخ وجزء من الفترة التي إستهدفها الدكتور أحمد الياس لأن قناعتي من قراءة تاريخ الفترة التي استهدفتها أن التحرك كان لمجموعات وليس لافراد أو قبيلة دون أخرى وقد اشتد بعد سقوط المقرة وذلك لمحاصرة مملكة سوبا المسيحية. وأنه بعد سقوط سوبا كان لكل قبيلة أو مجموعة خيار إستقرار مختلف شكلاً وليس موضوعاً حيث إستمر الإتصال الإجتماعي والثقافي قائماً بينهم، والدليل على ذلك تزاوجهم وتداخل إستقرارهم الذي شكل فيما بعد نسيجاً إجتماعياً شبه موحد لأن الغالبية العظمى كانت تدين بالإسلام. حيث لم يكن قد إستقر أمرهم في كيان سياسي موحد لحكم موحد حتى قيام دولة الفونج بفترة تجاوزت قرنين من الزمان تقريباً .

وقد تحدث أستاذنا الدكتور أحمد الياس حسين في الجزء الأول من مشروعه عن تحرك كل القبائل التي دخلت السودان على إمتداد السودان وعلى مختلف الأزمان قبل وبعد المسيحية وقبل وبعد الإسلام لتشكيل دموغرافية السودان الحديث. وهذا ما جعلني أشير في باب اليموغرافية في بحثي على أني سوف أقوم ببحث منفصل لاحقاً لأهمية معرفة التحرك قبل الفترة التي حددتها في كتابي .

وقد إستفدت في الجزء الذي إستهدفه الدكتور أحمد وذلك بتثبيت معلومة أو وجود إضاءة جديدة تعضد أو تخالف ما ذهبت اليه وهو هدف رئيسي من إطلاعي على كتاب الدكتور أحمد الياس ومن أهم الاختلافات التي لم يصل العلماء الاختصاصيين فيها على معلومة هي أصل سكان وسط السودان قديماً قبل دخول العرب وخصوصاً بعد الإسلام والكل لم يقف فيها على نهاية، إلا أن الراجح فيها من الآراء كان من جنوب ووسط إفريقيا حتى أن بعضهم ذكر الشلك برغم أن الدكتور أبوسليم كان من أكبر المعارضين لذلك حيث يعتقد أن الشلك لم يصلوا الى منطقة التقاء النيلين أصلاً عبر التاريخ ورغم أن الرأي الذي يقول أنهما من الغرب والشرق الأفريقي كان مرجحاً الا أن سيناريو الدكتور أحمد الياس كان يرجح أنهم من النوبا وهم من جهة الغرب نوعاً ما، وحكى عن تواصلهم الى مناطق بعينها في الشمال السوداني وهو رأي به نوع من المنطق وأضاف عليه إحتمال الشرق وهذه إضافة أيضا منطقية بخلاف من قال أنهم من الشلك، والقرينة التي تجعل من رأي الدكتور أحمد منطقياً هي الوثيقة التي أكتشفت حديثاً وقد تحدث عنها الأستاذ محمد صالح ضرار في

تاريخ البحر الأحمر وقد وجدت في إثيوبيا وتدعى (قدلي أفتسي)، وهى تتحدث عن ملكين من جنوب الجزيرة العربية حكما الحبشة والسودان الشرقي فترة طويلة قبل المسيحية وأحدهما كان يدعى نوبا والثاني سوبا بما يعني أنهم من الشرق(١)

وأعتذر عن نصها لأن المرجع ليس بمتناول يدي ولكني سوف ألحقها بمكتوبي آجلاً .

وإشارة الى ما ساقه من أن العرب أرخوا للقبائل العربية التي دخلت للسودان وخاصة إبان دخول الإسلام فهذا أكثر ما نعول عليه في معرفتنا عن أحوال تلك الفترة خاصة مجموعات عرفت بـ جهينة وأخرى برفاعة وقد جاء تفصيل لغالبيتها غير أنه ذكر فيما ذكر قبائل بعينها مثل قبيلة بلي وغيرها وبعضها ذات أصلين مثل بنو كاهل القحطانية والعدنانية وهذا ما أشرت له في كتابي من تحرك مجموعتي جهينة ورفاعة والى أين وصلوا وأماكن إستقرارهم .

ومن الملاحظ أننا التقينا في أهمية التاريخ للحقبة الزمنية من القرون الثمانية التي أعقبت اتفاقية ٣١ هجرية وقد قمت بتقسيمها الى ثلاثة مراحل وتخصصت

في المجموعات القادمة عن طريق النيل لأني أستهدف مجموعة "الخزرج" الحجازيين والتي ذكر الشيخ الصديق أحمد حضرة أنها كانت ضمن جهينة وذكرت فيما ذكرت من قراءاتى لبعض الجغرافيين

---

(١) تأريخ البحر الأحمر للأستاذ / محمد صالح ضرار

والمؤرخين وواقع الحال لخيارات الإستقرار لقبائل الوسط حول ملتقى النيلين رغم أن العرب منذ دخولهم للسودان كانوا متحركين الى الوسط بحكم سعة الأراضى وخصبها كان جنوباً مع النيل الا أن ذلك التحرك لم يكن نشيطاً ، وقد نشط فى مرحلتين تاليتين كان لهما الأثر الواضح جداً فى تكوينهم لدموغرافية الوسط ولذا يظهر لى أن التحرك القبلى الى وسط السودان قد تم على ثلاثة مراحل رئيسية كان لها الأثر الواضح فى تكوين ديموغرافية وسط السودان.

فالمرحلة الثانية وهى التى تمت بعيد سقوط المقرة فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى وهى التى تنادت لها مجموعة القبائل المسماة بـ (جهينة) والتى أرخ لها بن خلدون وذكر فيما ذكر عن تلك المجموعة أنها تمثل مجموعة كبيرة من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونهم المختلفة وقد ذكر غير واحد أن "الخزرج" كانوا ضمن هذه المجموعة كما ذكر المؤرخون أنها كانت عنيفة أى هجرتم وتحركهم وتمركزت فى ثلاثة محاور فى الشمال السودانى وفى أرض البطانة وفى الجزيرة وكانت من أجل حصار سوبا بغرض اسقاط دولة علوة المسيحية جهادياً وقد ذكر المؤرخون ومنهم الأستاذ الدكتور مصطفى محمد مسعد ناقلاً لهذا التحرك عن بن خلدون والمقريزى وهاملتون وأندرسون وماكمايكل وعباس عمارة أن تلك القبائل لم يجمعهم كيان سياسى لينظمهم لإدارة تلك العملية الجهادية وينظم الحياة السياسية بعد اسقاط علوة مما مهد لمدمري سوبا خطف هذا الإنجاز منهم والحاقه بأعمالهم بعد قرن من الزمان من تمامه.

وأما المرحلة الثالثة فهي التى فيها كان الإستقرار لتشكيل ديموغرافية الوسط بعد سقوط سوبا حيث كانت خيارات القبائل للإستقرار تبدأ من حيث انتهى المجاهدين وذلك أن الشيخ الصديق أحمد حضرة ذكر بأن هناك مجموعة من القبائل تسمت برفاعة وهى غير رفاعة الاشراف وغير رفاعة المنطقة المعروفة الآن بل هى مجموعة من القبائل العربية المتكتلة لحصار علوة أن تلك المجموعة وصلت الى حدود الحبشة ولعلة كل المجموعات وصلت الى هناك باعتبار أن فلول المدافعين تراجعوا الى حليفهم الرئيسى الأحباش ومن هنا ومن واقع الوجود القبلى فى وسط السودان مثلاً كان خيار الأشراف الإستقرار فى الجزيرة والكواهلة فى شمال الجزيرة وجنوب ملتقى النيلين وغيرهم من القبائل وعلى الخصوص فقد كان خيار المحس "الخزرج" أسوأ خيار فى ذلك الزمان حيث اختاروا ملتقى النيلين لخصوبة الارض وطمعاً فى تلك الجزيرة التى كانوا يغازلونها من الجهة الشرقية منها ولأنهم ورثوا حب العيش على الجزر من أهلهم المحس حيث كانت تمثل نفس المنطقة التى جاءوا منها، وأما سوءها كان فى تلك المستنقعات التى كانت تحيط بها والغابات والحيوانات المفترسة التى لم يألفوا العيش مع كثير منها الا أنهم نجحوا وبمعيتهم الجعليين الجموعية والدرايسة وبعض الأشراف بالإستقرار فى المنطقة وجذب جميع أطراف السودان اليها وخاصة بعد قدوم الشيخ أرباب العقائد بعلمه الذى وفد اليه الطلبة من جميع أطراف السودان وأيضا من خارج السودان لتصبح العاصمة الأهلية الثقافية للسودان والتى عرفت ببر المحس ثم قرية أرباب العقائد المحسي الخزرجي

ثم خرطوم توتي قبل أن يتخذها الأتراك العاصمة السياسية القومية للسودان والتي عرفت فيها بإسم الخرطوم والى يومنا هذا باستثناء الاثنى عشرة سنة لحكم المهدية والتي كانت فيها عاصمتها أمدرمان.

وقد تحدث الدكتور أحمد الياس في الجزء الثاني عن التحركات السكانية ما بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديين في إفريقيا والآثار الإقتصادية والسياسية والدينية لاعادة تشكيل ديموغرافي واسع النطاق وأن السودان لم يكن بمعزل من هذا الحراك السكاني وآثاره في تشكيل ديموغرافيته وثقافته وهويته ولي أن أؤكد اني في بحثي وكتابي هذا قد نهجت نفس النهج غير أني حصرت نفسي في السودان وخصصت بالذكر المحس المهاجرين الى أواسط السودان وأثر ذلك في التشكيل الديموغرافي والثقافي .

وأعتقد أن من أهداف الدكتور أن يثير كتابه الباحثين لينتهجوا ذات النهج لإضافة معلومات جديدة عن تلك الفترة والتي اعتمد فيها علي بعض العلماء الجغرافيين والمؤريخين والرواة العرب من معاصري الفترة وأشاد بكتاب الدكتور مسعد وهذا ما اعتمدته مع إضافة تحقيقي الخاص عن مملكة بعينها عاشت ثمانية قرون في الإسلام لم يكتب عنها، وبهذا أكون أول من حقق للدكتور أحمد الياس حسين أحد أهدافه الرئيسية من كتابته هذا الكتاب وحيث أن الجزء الثاني كان منصباً على التأصيل للهوية وتكويناتها في مناطق السودان المختلفة وأوضح كيف تشكلت الهوية بعد أن كانت النسبة للمكان المحدود دون الكيان الواحد الذي ضمته فيما بعد حدود واحدة وحكومة واحدة مهدت للانصهار والذوبان والشعور بأن هويتنا أيضا واحدة وقد دخل

الإسلام في هذه المنظومة كعامل مساعد يدفع دفعاً ايجابياً بحدوده المعروفة للوعي بالذات وتأصيلاً للهوية .

أما فيما يخص الجزء الثالث

فإن الدكتور أحمد الياس كان هدفه البحث والكتابة عن الفترة ما بين القرن السابع الميلادي والقرن الخامس عشر أي من القرن الأول الى القرن التاسع الهجري وبالرغم من أنني أشترك معه في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فقط فقد شكلت الفترة السابقة لفترتي والتي أولاها اهتمامه بنقل أخبار الحروب التي نشبت بين المسيحية والإسلام في تلك الفترة والاتفاقيات المعدلة لاتفاقية ٣١ هجرية بل هناك اتفاقيات أخرى جديدة وأيضا العلاقات السياسية وما يتبعها من إقتصادية وإجتماعية ممهداً الطريق للباحثين وشاحذاً هممهم للغوص أكثر للكشف عن هذه الفترة التي ظلت غامضة رغم قربها من عصرنا هذا .

وأنا أعد نفسي أول المستفيدين من أهدافه النبيلة بأن أتحدث عن واحدة من الممالك التي نشأت في الثلث الأخير من فترته والتي أتحفني فيها بالمعلومة الخبرية والنقد المنطقي لما وجد فيه من خلاف بالإضافة الى أن هناك كثير من الممالك الصغيرة التي شاهدها أو زارها علماء مثل بن حوقل ورصفائه من علماء الجغرافية أو المؤرخين وأيضا العابرين من القساوسة وغيرهم من الرحالة .

ولمعرفة ما هنالك علينا اتباع طريقة الدكتور أحمد الياس في جمع الأخبار وتدقيقها وتحليلها لمزيد من معرفة ما كان يجري في تلك

القرون وما كان حاصلاً على أرض الواقع ولا أدل على كلامي هذا من مراد الدكتور أحمد الياس من نقلنا الى نكتة من نكت تاريخنا في الحقبة التي استهدفها وهو من إستقرائه للأوضاع ومحاولة التقاط المنظر والحالة لتحقيق وضع معين يصحح به الأفهام العامة التي أصبحت متكأً لكثير من الباحثين بل بعض المؤرخين وعدت من المسلمات مثل ما ذكره في الجزء الثالث من أنه:- ((ساد في مفاهيمنا العامة سقوط مملكة مقرة عام ٧١٦ هجرية ١٣١٦ ميلادية وهو مفهوم على درجة كبيرة من عدم الدقة)) ورغم أنه لم يستطع أن يوضح تاريخ السقوط على وجه التحديد الا أنه بين عدم منطقية التسليم بما عرف سابقاً وكان محقاً والمهم أنه أثار نقطة هامة يجب بحثها . وهذا مثل ما ذكرته أنا في كتابي مملكة المحس الإسلامية عن مملكة سوبا ولكني وجدت من يعضدني فيما ما ادعيت وكل ذلك ينصب على أهم أهداف كتاب الدكتور أحمد الياس وهو من مطلوباته وأيضا تجدني أخالف أستاذنا الدكتور أن التاريخ الذي ذكره وإن لم يكن على وجه الدقة إلا أنه يظل الأقرب للحقيقة حسبما سوف أورده لاحقاً في سقوط علوة .

وأحسب أن فائدتي من هذا العلم الجم لم تنتهي بعد حيث أفكر في زيارة مناطق المحس المختلف للكتابة عنها وعنهم وجمع ما أجد من وثائق ومعلومات ليتحول باب أثر المحس في ديموغرافية الوسط الى بحث آخر وكتاب آخر أتمم به ما بدأت من توثيق لتلك المملكة التي بدأت في زمان موغل في القدم قبل المسيحية وبعد الإسلام والى عصرنا هذا وقد شاهدنا ونقلنا عمن شاهد آخر تتويج لآخر ملوكها

في عام ١٩١٨ بجبل سيسب بـ سدلة غرب دلقو بأرض المحس وهو الملك عبد العزيز بن الزبير بن دياب وقد توج تشريفياً بسراي الحاكم العام في١٩٢٢ والمعروف أنه آخر ملك من ملوك المحس "الخزرج" وكان آخر مقر لمملكته قصره الذي لازال موجوداً في كوكا بأرض المحس [١] .

فكتابي هذا هو عبارة عن بحث لشحذ همم طلبة الدراسات العليا والباحثين للتركيز والاهتمام بدراسة واستقصاء وتدوين تاريخ السودان فى حقبة القرن

التاسع الى القرن الثانى عشر الميلادي ثم القرنين الهامين اللذان كانا نتاجا للحقبة السابقة لهما وهما القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادى وأثرهما على السودان تاريخيا وجغرافيا وديموغرافيا لأنهما القرنان اللذان مهدا لانتصار الإسلام سياسيا فى السودان كسلطة حاكمة بقيام دولة الفونج الإسلامية فى بداية القرن السادس عشر الميلادى .

---

(١) قد زرت هذا القصر إبان زيارتنا التأريخية في عام ٢٠٠٩والتي أفردت لها باباً بهذا الكتاب والقصر يحتاج إلى ترميم وصيانة لأنه يمثل آخر آثار مملكة المحس الخزرج الإسلامية وذلك يمثل معلماً هاماً من معالم تأريخ السودان .

منهج الكتاب

برغم أن لكتابة التاريخ منهج واضح ويكاد يكون متفق علية من اختصاصيى هذا العلم، الا أن هناك أدوات منطقية هامة لا ينكرها هذا العلم أيضا وسوف أتطرق لموضوع هذه الأدوات قبل بيان المنهج لأننى سوف أحتاج اليها لكتابتى عن تاريخ هذه الحقبة فى السودان بحدوده المعروفة اليوم وممالكه الإسلامية وعن تاريخ مملكة المحس الإسلامية العريقة ذات الأثر الايجابى الواضح فى الزمان والمكان اللذين نشأت فيهما و أيضا الذى أنشأه أحفادها فى زمان ومكان آخر وكان له الأثر الواضح فى ديموغرافية السودان الأوسط والعاصمة السودانية الخرطوم.

وبما أن المتفق عليه بين علماء التاريخ لا يحتاج الى نقاش - و أتفق معهم فيه- وهو ما يخص وجوب نقل الحقائق من الآثار والوثائق المحققة الرواية وكتب التاريخ المعتمدة بالشروط المعروفة. الا أن هناك أدوات أخرى لها أهميتها ولا يمكن تجاهلها أو الغائها سوف أذكر فيما يلى أهمها:-

فأهم هذه الأدوات هى ما شاهده الجغرافيون والرحالة من قساوس وعلماء من العرب وغيرهم .

و مستعينا بما كتبه البروفسير يوسف فضل حسن فى سلسلته الرائعة المسماة (دراسات فى تاريخ السودان وإفريقيا وبلاد العرب) الجزء الثالث لأدلل على ما ذهبت اليه مما انتهجه وناقشه البروفسير فى

تخطيطه لتلك السلسلة الرائعة فأشير الى بعض النقاط الهامة فيها :-

أولا الموضوع المرقم بـ ٤ وهو (سودان وادى النيل فى كتب الرحالة العرب فى العصر الوسيط . قد استهل هذا الجزء بالآتى نصه :-

نستعرض من خلال هذه الورقة أهم الرحالة العرب الذين زاروا سودان وادى النيل فى (العصر الوسيط) ورسم السمات العامة لسودان وادى النيل ونستخلص من هذه الكتابات الاجابة على الاسئلة:-

لماذا تناول الرحالة العرب سودان وادى النيل فى كتبهم ؟

وكيف تناولوه ؟

وعلى أى مدى يمكن الاعتماد على ما كتبوه كمرجعية تاريخية لدراسة تاريخ هذه البلاد ؟

ثانيا أورد فى الفقرة الأخيرة من هذا الاستهلال الآتى :-

وفى الجزء الثالث نستعرض خمسة من أهم كتب الرحلات التى ظهرت فيها ملامح لسودان وادى النيل ، ويقوم الاستعراض على مناقشة كل كتاب على حدة (مؤلفه و كيف وصل الى سودان وادى النيل، ماذا كتب عنه ، أهمية ما كتبه والى أى مدى يمكن الاعتماد عليه باعتباره مصدرا تاريخيا ؟ وفى نهاية البحث نخلص للنتائج التى توصلت اليها الدراسة و تحقيق فرضياتها و الاجابة على تساؤلاتها .

ثالثا ان من أهم النتائج التى خلص اليها العلامة البروفسير يوسف فضل حسن فى خاتمة الوضوع الآتى :-

((وعلى كل حال فان الأجزاء الشمالية من سودان وادى النيل خصوصا بلاد النوبة وديار البجه كانتا بشكل أو بآخر تدوران فى فلك الدولة الإسلامية إقتصاديا وسياسيا، وعليه فليس غريبا أن يتردد عليهما الرحالة أو يكتبوا عنهما مثل ما كتبوا عن بقية العالم الإسلامى. واذا كان الدافع الأكبر والرئيس لهذه الرحلات دافعا دينيا يتمثل فى قصد الأراضى المقدسة أو غيره فان ذلك لا يلغى وجود أهداف أخرى متنوعة شكل بعضها أو كلها مجتمعة حوافز لورود بلاد النوبة وديار البجه مثل السياحة والرغبة فى اكتشاف أراضى وتعرف أحوالها واحوال سكانها كما يتجلى فى شكل واضح فى رحلة ابن جبير ورحلات ابن بطوطة، وكما رأينا فقد أغرت بعض الدوافع غير الدينية ابن سليم الأسوانى فتوغل جنوبا حتى بلاد علوة ووصف حالها وأحوالها وطبائع سكانها وخواص أهلها .

ويشكل أدب الرحلات الخاص بسودان وادى النيل على النحو الذى استعرضناه مصدرا ثرا لدراسة هذه البلاد لا غنى عنه لكل طالب معرفة أو قاصد علم فى مجالات التاريخ والإقتصاد والإجتماع والعمران البشرى وحتى دراسات الفولكلور والميثولوجيا اذ لم تخل تلك الكتب من ذكر الأساطير والحكايات الخرافية والمعتقدات المحلية لسكان سودان وادى النيل. وأيا كان موقفنا من هذه الكتابات ورأينا حول مصداقية مؤلفيها من الرحالة ونقدنا لمنهجهم فى الكتابة، اذ أن بعضهم سرد ما رآه من الذاكرة وبعد مضى أكثر من عقد من الزمان كما هو الحال فى رحلات ابن بطوطة، فان هذه الكتب تشكل المصدر الأساسى لدراسة تاريخ سودان وادى النيل فى العصر الوسيط. إنتهى

ثم بعد كلام البروفسير يوسف فضل حسن يكون من المفيد هنا ان أورد كلاما في حق كل الرحالة العرب والجغرافيين

الذين زاروا بلاد السودان للتأكيد على أهمية كتب الرحالة والجغرافيون فيما ننوى بحثه . تحدث الدكتور / ديونيسيوس البرتوس اكيوس : -

في محاضرة بعنوان (عرض لأعمال الرحالة والجغرافيين والعرب والمسلمين المتاحة للباحثين وتصويرها للوضع الإقتصادي والإجتماعي للمنطقة)(١)

ذكر(٢) الآتى :- ((يبدو ان الجغرافيا ترجمت عدة مرات وراجعها ثلاثة رواد من الجغرافيين المسلمين وهم ابن خرداذبة، والمسعودي وابن حوقل، وكان الاخيران، اي المسعودي وابن حوقل رحالين وأيضا بالإضافة لليعقوبي فأخذ هؤلاء يطوفون مناطق ديار المسلمين كلها، وتعد اعمالهم بالغة الأهمية بصرف النظر عن طريقتهم المنهجية في تقديم المعلومات والمعارف الجغرافية، وانهم يقدمون تفاصيل الحياة الإقتصادية والإجتماعية للشعوب الذين التقى بهم المؤلفون، وبذلك انشأوا نوعا من الكتابة عرفت بأدب شهود العيان. ربما لا تكون بالضرورة تقارير موثقة اذ كان هناك دائما خطر اختلاط الاسطورة

---

(١) ندوة عن كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج عبر العصور - عرض - نقد - وتحليل والتي أقيمت في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي في الثامن من أبريل من عام ١٩٩٦ بالتعاون مع جامعة الإمارات والمركز الثقافي أبوظبي.
(٢) كندي مواليد ١٩٤٥م دكتوراة في الفلسفة في اللغة العربية وآدابها (جامعة تورينتو) ورئيس تحرير مجلة المساق الدولية للدراسات الإسلامية والعربية في حوض البحر الأبيض المتوسط .

بالحقيقة)) أهـ ».

هذا وقد استفدت كثيرا من عرض وتحقيق البروفسر يوسف فضل حسن لهذا الموضوع وكذلك إشارة الدكتور ديونسيوس سالفة الذكر وهذا ما شجعنى للقيام بدراسة مشاهدات الرحالة العرب و منها مشاهدة الرحالة الجغرافى أبو القاسم أحمد بن حوقل النصيبى على الخصوص لتغطيته الشاملة للموضوع حيث كان قد زار هذه البلاد السودانية قادما اليها من مصر عن طريق أسوان ثم منطقة البحر الأحمر فكسلا ثم البطانة ثم نهر النيل الى التقاء النيلين ثم النيل الأزرق حتى حدود الحبشة وعبر الى النيل الأبيض قريب من منطقة الالتقاء بالنيل الأزرق وأن مشاهدات هذا الرحالة العربى المسلم أسهمت فى الاشارة بوجود ممالك مسلمة فى بعض هذه المناطق وخاصة أن زيارته تلك كانت فى القرن الرابع الهجرى وهو القرن التاسع الميلادى زمن بداية تأسيس مملكة المحس "الخزرج" الإسلامية موضوع اهتمامى وبحثى.

هذا وسوف أحاول أن أبدأ بالكتابة عن أصل المحس ثم بعد ذلك مملكتهم التى امتدت لأكثر من ثمانية قرون لم يكتب عنها أى باحث ولم يشر اليها الا قليلا وأحسب أن هناك باحث واحد فقط تكلم عن المحس كقبيلة لها ثقلها ووزنها دون مملكتها أرجو بذلك أن يكون فتحا للكثير من البحوث عن مملكة المحس والممالك الإسلامية الأخرى التى قامت فى تلك الحقبة والتى ظلت مجهولة غير شذرات من هنا وهناك. ثم عرجت على إستقرار ذلك الجزء العزيز من المحس فى منطقة التقاء النيلين ، ثم إجتماعنا بشباب المحس من منطقتنا بالشمالية والذى أثمر عن تلك الزيارة التاريخية لأرض المحس ونتائج كلاهما وأثر ذلك فى تدعيم المعلومة التى تفيد موضوعى مملكة المحس الإسلامية وأثرها على السودان ديموغرافيا وثقافيا وسياسيا، ثم ختمت بالنتائج المستخلصة من البحث والفائدة المرجوة منه والحمد لله فى الأولى وفى الآخرة.

الباب الأول

أصل كلمة المحس وأماكن وجودهم بالسودان

اختلف الباحثون تبعا للمؤرخين حول ذكر كلمة المحس فى التاريخ هل هو قديم (أقصد قبل الميلاد) أم حديث (أقصد عهد الدولة الإسلامية) مع اتفاقهم بأن الكلمة تخص قبيلة المحس فى السودان واتفقوا على أماكن تواجدهم الأصلى بالسودان واختلفوا أيضا فى تقدير زمن وصول جزء منهم الى منطقة التقاء النيلين وعن سبقهم فى ذلك وكل منهم على حسب اجتهاده وما وصله من معلومات. وتساءل أهل التاريخ و الباحثون حول هل هناك من سبقهم الى هذه المنطقة وما هى أجناس السابقين ومواصفات حياتهم الإقتصادية والدينية والسياسية وأين آثارهم الدالة عليهم وأسئلة كثيرة يعرفها المتخصصون بهذا الفن الا انه تبقى لدينا نحن أبناء المحس الباحثين للحقيقة التاريخية أيضا فرصة للتساؤل والتباحث برغم ما أشرت اليه الآن فيما كتبه المؤرخون والباحثون بالقدر المتواضع الموجود بين أيدينا حتى الآن، بل يمكننا أن نشير بعض الاشارات الى بعض ما كتب أو المقارنة بين ما كتب وبخاصة اذا اختلفوا فى شيء منه اذ أن ثمة علوم قد تدخل فى الموضوع عند الاختلاف مثل الجغرافية و الفلسفة والمنطق والمضاهاة وهذا ما حدانى لعرض الموضوع للمؤرخين وأيضا للباحثين والمفكرين من ذوى الاختصاصات الأخرى كما ذكرت فأقول ان للموضوع شقين:

الشق الأول هو أصل كلمة المحس التاريخى وعلاقتها بهذه القبيلة التى إتسمت بها

الشق الثانى عن تواجدهم الأصلى بالسودان و فى أى وقت إستقر جزء من قبيلة المحس بمنطقة التقاء النيلين كوجود مركزى للقبيلة

ولإثراء البحث و الفكر والتاريخ بخصوص الشق الأول أذكر موضعين لورود كلمة المحس فى التاريخ وعلاقة ذلك بهذه القبيلة ليستقرأ منه علاقتها بالاسم ابتداء :

الموضع الأول (على حسب التقادم التاريخى وليس الورود كمعلومة تاريخية لأنه حديث الورود) أنه ورد الينا من الأستاذ تاج السر عثمان فى كتابه الدولة السودانية النشأة والخصائص[1] وهو يستعرض ما وجد مكتوبا فى جزء من مسلة الملك بعانخى (أو بيبى بلغة النوبة) وهو الآتى ((يا ملك أرض المحس تعال مندفعا مع تيار النهر الي (بتشديد الياء والفتح)

تعال هنا لمعبد آمون

أعطى تاج الملوك أرض المحس

لأهبكم كل البقاع ولأهبكم الفيضان العميم والأمطار الدافقة

وأضع كل الأعداء تحت رحمتكم

فلا عاش من يعاديكم والدم الدم للأعداء .(انتهى النقل)

(١) ص ٢٥ الطبعة الأولى (الشركة السودانية للطباعة والنشر عام ٢٠٠٨)

وما يهمنا هنا ذكر المحس كقوم وكأرض ان صحت الترجمة فهذا هو أقدم ذكر لهذه القبيلة فى التاريخ عثرت عليه. علما بأن عهد بعانخى كان (٧٥٠ – ٧٠٠) ق م.

والموضع الثانى لذكر كلمة المحس عند الشيخ الصديق أحمد حضرة (١٧٩٨- ١٩١٨) من علماء قبيلة المحس وكتابه العرب التاريخ والجذور الجزء الأول (أنساب أهل السودان ذات الجذور العربية) تقديم الأستاذ محمد محجوب حضرة وتصدير المرحوم البروفسير عون الشريف قاسم وهو مأخوذ من تلك المخطوطة الكبرى ذلك أن الشيخ الصديق عندما ذكر فلاح بن شرف الدين بن عجم ذكر أن عجم بن زايد بن محمد محسن، وذكر أن محمد محسن هذا هو الذى انتسبت اليه قبائل المحس ومعروف أن محمد محسن ملقب بمحس.

وهذا يعنى أننا عرفنا الاسم ابتداءا من تاريخ وجوده فى القبيلة (الذى لا يتجاوز القرن الثالث عشر الميلادى تقريبا) كابن لمرزوق بن الملك سعد بن الملك جامع وهذا خطأ لسببين الأول أن القبيلة معروفة بهذا الإسم من قبل الميلاد.

والثاني أن إسم محسن غير عربي وهذا رأي الدكتور يحيى فضل طاهر أوغير معروف عند العرب على الأقل الى ذلك الزمان وربما كان اطلاقهم لقب محس على ابنهم محمد محسن استثناء ذلك أنهم ربما آنسوا فيه قيادة وشجاعة وتحمل للمسؤلية على المستوى القومى للقبيلة كسابق عهدهم بملوكهم المحاربين الأقوياء وخاصة

اذا علمنا ان ترجمة كلمة محس (بعد أن سألنا أهلنا فى الشمال عنها) هو الشجاع المقدام وتقال للقادة المحاربين النسبة للقبيلة صحيحة،[1] وأن اللقب انسحب على أبنائه واخوانه وبنى عمه، وهو قول مستفيض المعرفة لكثير من الباحثين من المحس فى تاريخهم فى الشمال والوسط والغرب السودانى.

أما اذا اعتمدنا قول أن المحس عرفوا بهذا الإسم من محمد محس دون غيره فهذا يعنى بالضرورة أن من كانوا قبله لم يعرفوا بهذا الاسم أعنى من أجداد محمد محس نفسه وخاصة الذين هاجروا من المنطقة الأصلية بالشمال السودانى قبل وجود محمد محس. وهنا سؤال هام يطرح نفسه وهو ما بال الذين كانت هجراتهم قبل وجود محمد محس .

وتفرقت بطونهم فى أنحاء السودان المختلفة وتسمت كل بطن بما يخصها من أسماء .

ومع ذلك انضوت هذه البطون تحت اسم المحس ، فهل هذا مرده للاسم القديم كما أوردت ذلك أولا، أم لأن لقب محمد محس قد شمل كل أفراد قبيلته فى الشمال قبل وبعد وجوده ومن ثم إنحازت اليه القبيلة كلها فى كل أنحاء السودان.

و ما ذكرته آنفا من تعليل وتساؤل فى أسباب اطلاق لقب (محس)

---

(١) هذا المعنى أيضا خطأه الدكتور يحيى فضل طاهر أحد مرجعيات الكتاب، وعزا ذلك الى أن كلمة محس آتية من الكلمة المصرية القديمة تانحسو وهي تعني (أرض الجنوب أو أرض السود).

على محمد محسن بن الملك سعد وعلى القبيلة نفسها فى كل أنحاء السودان كان رأى و اجتهاد قصدي منه الجمع بين ما وجد مكتويا بمسلة بعانخى لأنه أثر ثابت لا يمكن مضاهاته بالأقوال وبين ما ورد الينا من كثير من رواتنا لأنه معتمدا لدى الكثيرين الآن كخبر ثابت. ولأن هذا العرض والتعارض هو دعوى للمؤرخين والمفكرين لاثراء الفكر والمعرفة و الثقافة. رغم تأييدى للقول بأن الاسم قديم قبل محمد محس . لأنه لا مجال لمضاهاة الأثر التاريخى ان صحت الترجمة. هذا فيما يخص الشق الأول.

أما الشق الثانى

فللمؤرخ المحسي الشيخ الصديق أحمد حضرة [١] ونفس المرجع السابق أيضا بالصفحات ١٩٣و ١٩٦و١٩٩ والخاصه بأماكن التواجد التاريخى الأسبق بالسودان فانه قال ((وأما المحس فبلادهم بين الشلال الثالث وجبل دوشة وهم يدعون النسب الى أبى كعب ويقولون أنهم كانوا عند مجيئهم الى دار المحس سبعين ألفا وقد كان لهم قبل الفتح المصرى ملك فى جبل ساسى لا تزال ذريتهم مقيمة هناك الى اليوم . ثم ذكر أيضا وسكن فى بلاد السكوت بين الشلال الثانى و جبل دوشة بعض الأشراف وفى المحس بين جبل دوشة والشلال الثالث قوم ينتسبون الى عرب قريش .

وقد أسسوا مملكة فى جبل ساسى التى دامت الى الفتح المصرى كما

(١) من مؤرخي ورواة تأريخ العرب في السودان ومخطوطته التي تقع في أكثر من ثلاثمائة صفحة بحجم A4 المسماة (حسن المسيارة والأرب في معرفة أصول وقبايل العرب) خير دليل

مرة علينا سابقاً . وكان ملك المحس فى أيام الفتح المصرى الملك صبير جد الملك صبير كبير المحس فى هذه الأيام وذكر أيضا فى الضباينة وذكر أنهم من جهينة الا فرقة الشامية فهم ينسبون الى محسن (أى محسن بن الملك سعد الملقب بمحس) وينقسمون الى سبعة عماير كبيرة وقد كانوا فى زمن الفونج فى حرب دائم مع الحمدة ،

فلما جاءت الحكومة المصرية انقطعت تلك الحرب .هذا وان موضوع تواجدهم الآن أو أين هم الآن موضوع كبير سوف اتطرق له فى المستقبل لأنه موضوع مباشر لخلق التراحم والبر وصلة الأرحام .

والملاحظ هنا أن الشيخ الصديق أحمد حضرة فيما ذكر أنهم عند مجيئهم الى دار المحس وهذا يشير بأن هناك دار للمحس قبل مجىء أحفاد أبى بن كعب وهذا مما يعضد صحة النقل عن الأستاذ تاج السر عثمان في كتابه السودان الدولة النشأة والخصائص المذكور . أيضا لعل هناك خطأ تصحيف فى النقل الثانى وارتباك فى النص أو النسخ فان الأشراف هم الذين ينتسبون الى قريش و أن ملك المحس وكبير المحس اسمه (زبير) وليس (صبير) وهو زبير بن دياب .

ونذكر ما ورد أيضا فى الوثيقة التى كتبت عن الشيخ خوجلي بن الفقيه عبد الرحمن بن ابراهيم المحسي المشهور بالشيخ خوجلي أبو الجاز وذلك فى إجتماع عام لأكابر وعلماء المحس

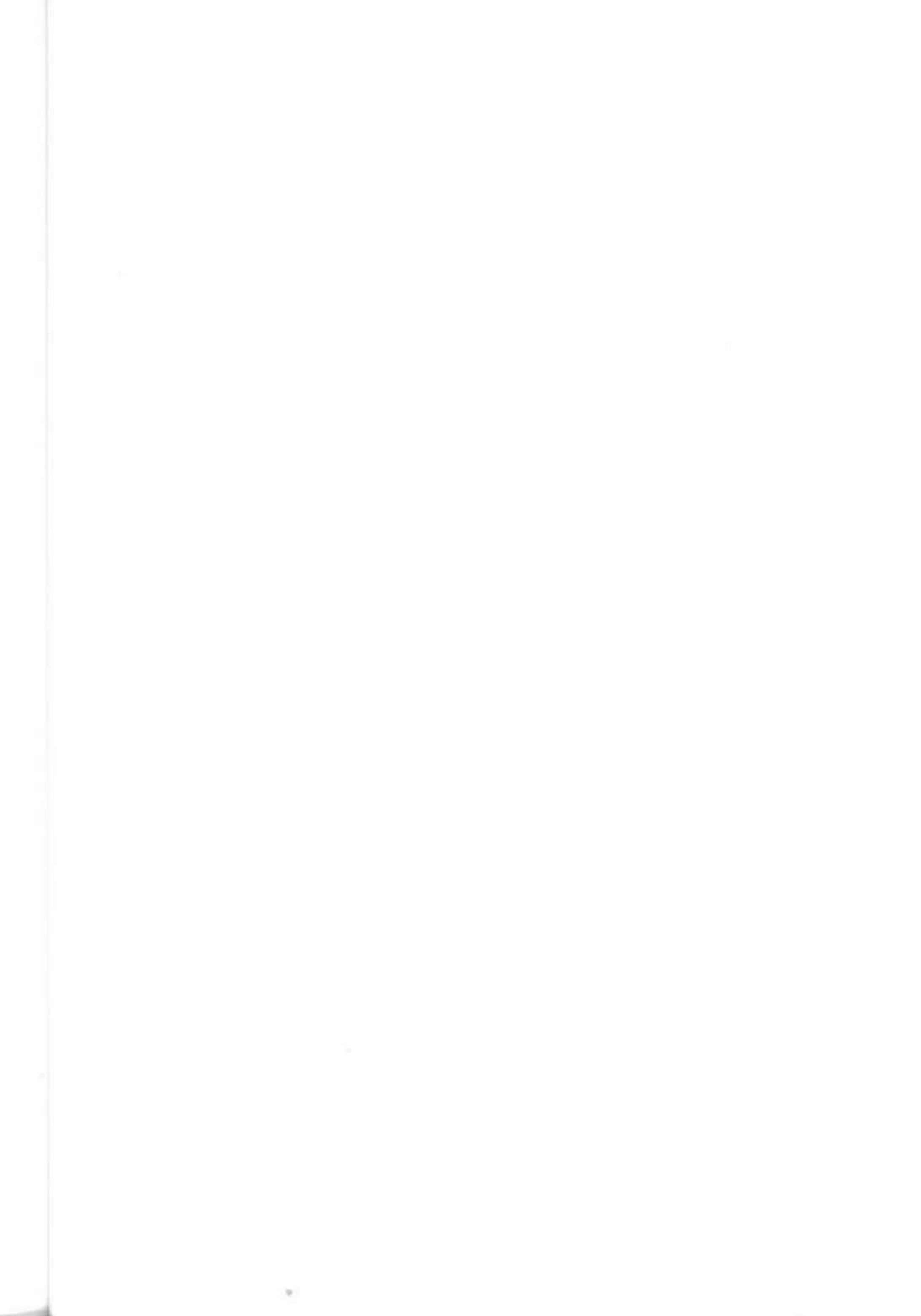
كان موضوعه أصل المحس وأماكن تواجدهم بالسودان وسأكتفى بجزء منها والرواية عن الفقيه علي بن الفقيه بساطى بن الشيخ أحمد أرباب العقائد عن الفقيه محمد بن الفقيه مضوى بن طاع الله القردقابى عن عمه عبد القادر بن سليمان المكنى بأبى الكيلات بن موسى والذى تأخر فى عمره قال)تجمعوا جماهير و أكابر قبيلة المحس من العقلاء والعلماء والصالحين وأنا حاضر معهم أمام حبر زمانه ولى الله الشيخ خوجلي بن الفقيه عبد الرحمن.........الى أن قال:- ((وقد تكلم ولى الله الشيخ خوجلي وسمعت من لسانه أنه نسب المحس يلحق بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بن كعب بن عبد الله بن قيس الأنصارى الخزرجى من بنى النجار،وقد وافقوه جميع أفاضل المحس من العلماء وأهل الصلاح. وذكر جدود المحس الموجودين بالسودان وهم شريف جد المشيرفية أولاد فلاح الاربعة وغيرهم وكبانى جد المحس الكبانية بما فيهم الحبر المذكور أكرمه الله وسعد الله جد السعدلاب والعجيماب وغيرهم وعبودى جد العبودية و صارد جد الصواردة وسادر جد السدارنة و زايد جد الزيادية بالغرب ومزاد أبو شامة جد الشامية بالضباينة والحمدلاب سكان العيلفون وشعبان جد الشعباناب المحس الذين هم بجهة السافل مع الجعليين وهم أولاد عجم التسعة بن زايد بن محمد محس بن الملك سعد بن سكر بن الملك جامع .انتهى النقل .

والملاحظ أن الشيخ خوجلي أبو الجاز تكلم عن مناطق تواجد المحس بعد عهد محمد محس وهى مناطق إستقرار أبناء عجم التسعة ومع ذلك فاته أن يشير الى مكان إستقرار الأبناء الأربعة لعجم بن زايد وهم سعد الله وكبانى وشرف الدين وعبودى الذين يوجد الغالب الأعظم من ذرياتهم فى شمبات والصبابى وتوتي وبرالخرطوم (برى) و أم درمان والعيلفون (برغم ذكره للحمدلاب) وأن هذا ربما يكون بسبب أنه من المعلوم بالضرورة للحاضرين معه بالمجلس أو ربما يشير الى أن كل الهجرات التى ذكرها كانت من منطقة التقاء النيلين ولذا لم يتكلم عن من بقى لأنه يتكلم عن من هاجر فقط . والله أعلم.

الباب الثاني

إمارة ومملكة المحس الإسلامية

٨٦٦ – ١٩٢٢ ميلادية



تمهيد للباب الثانى
إمارة ومملكة المحس الإسلامية

المحس والذين هم من أهم مكونات المجتمع النوبى وملوكهم والذين ذكرتهم فى الباب الأول بدعوة بعانخى لملكهم (٧٥٠-٧٠٠) ق م والتى استهلها بـ (أعطى تاج الملوك أرض المحس) مما يشعر بقدم ورسوخ ملك المحس بمنطقة النوبة بل عد المؤرخ الاغريقى هيردوتس أن حضارة النوبة هى أول حضارة قامت على وجه الأرض .

فماذا وجد العالم الآثارى متخصص علم الانسان البروفسر وليام واى آدمز[١] والذى تخصص أيضا فى التنقيب عن آثار النوبة ؟ .

وحيث أننى أريد أن أقتطف بعض ما أثبته البروفسر آدمز من خلال علم الآثار وعلم الانسان وبخاصة أنه كان قائداً لبعثة انقاذ الآثار السودانية المغمورة نتيجة قيام السد العالى فى مصر وقد عمل خلال فترة السبعة سنوات التى قضاها هناك مستشاراًعلمياً لمصلحة الآثار السودانية.

وأول ما أكده أن أرض النوبة تمتد من جنوب مصر وشمال السودان وأواسطه الى منطقة سنار الحالية.

وثانياً رده على العالم المؤرخ بدج حينما قال بدج (أن آثار السودان لم تكن سوى عملية يقوم بها الأجانب) يقول البروفسر آدمز (من

---

(١) عضو مؤسس فى الجمعية العالمية للدراسات النوبية، وكذلك جمعية الدراسات المروية وعضو شرف مدى الحياة فى جمعية البحوث الآثارية السودانية فى المملكة المتحدة ، وصاحب العضوية الشرفية مدى الحياة فى مركز الدراسات النوبية والتوثيق فى القاهرة وأحد أعضاء اللجنة الإستشارية العليا .

السخرية أن العام الذى شهد وجهة نظر بدج المتشائمة شهد كذلك استهلال البحث الآثارى فى النوبة وأنه على خطأ فادح) لايمانه بأن النوبة تمثل الرواق الحضارى لأفريقية وأن البحث فى آثارها غنىٌ بالمعارف التى من شأنها اثبات ذلك .

وقد ذكر أستاذنا العالم محجوب التجانى محمود مترجم كتاب النوبة رواق أفريقية (للبروفسر آدمز) ان الاستعمار الغاشم هو من طمس حضارة النوبة العريقة وأطال غفلة العلماء عنها بتحيزه الأعمى عن نشأتها ردحاً طويلاً

فالحضارة الكوشية استمرت أكثر من ألف عام وتعتبر بحساب أزمان الحضارات أطول من الحضارة المصرية والقوى الآشورية والفارسية والمكدونية وظل فراعنتها يوتوجون قرناً من بعد قرن بعد الميلاد ومثلما برعت فى القتال واشتهرت بالنبال انتقلت منها زراعة القطن وربما الحديد وازدهرت خارج الحدود المحلية ملامسةً البحر الأبيض المتوسط وأعماق القارة الأفريقية.

وأختم بما فهمته عن أستاذنا محجوب والبروفسر آدمز عن بعض ما توصل له البروفسر آدمز عن النوبة من خلال عمله بالمنطقة وقراءاته التاريخية عنها وذلك (أن مصر الفرعونية وكوش النبتية كانتا حضارتان محدودتا النطاق وكانت مصر البطلمية (أو البطليموسية) وكوش المروية تعبران بإقليميهما عن حضارة عالمية، فمروي هى الأسطورة التى قدمها المؤرخ الاغريقى هيردوتس واسترابو وصادقها جيمس بوس ١٧٧١م. وبلغتها المنسابة طلاسم لم تفك رموزها تعد

عقدة التاريخ القديم اهراماتها تواصلُ من التطور العنيد وتقدم للباحثين والمهتمين أكبر مجموعة اهرامات عرفها التاريخ .

أجبر مندوبوها الى السفر الى ساموس البعيدة على ساحل تركيا ليلتمسوا السلام فى البلاط الامبراطورى بشرط أن يحقق السلام للسودانيين فألغوا جزية الرومان . وقد أكد البروفسر آدمز عظمتهم بقوله (ان صناع الحضارة النوبية أقوياء احتاج اليهم الكهنوت فى الكرنك وجبل البركل عقب انهيار امبراطورية مصر التوسعية وما خلفته من فراغ فى السلطة بكل من النوبة ومصر العليا . وأن النوبة هم سكان وادى النيل الذين تميزت صروحهم المعمارية بتفرد وغرابة أحياناً وأن الدفوف واحدة من أكثر الهياكل غرابة من نوعها فى الوجود ولاستكمال صورة الأبهة الهمجية يمكن القول أن عدد القرابين البشرية فى المدفن التلى المجهول فى كرمة يبلغ ٣٢٢بلغت ٤٠٠ قبل النهب أى أنه يمثل أكبر عدد لقرابين وجد فى أى مدفن لأية حضارة حتى الآن

وأختم بخلاصة تصدير أستاذنا محجوب التجانى حيث يقول ... انتقلت خصال (أرض النبال) كما كان يسميها المصريين القدماء وفق ما أنبأت به نقوش الرموز الهيروغلوفية آخذةً (رماة الحدق) الى المسيحية بما حملت من نسق روحى ومعانى جديدة فى التسامح والفضائل تفتت معها استعلاء الفراعنة وازدراء الأباطرة للشعوب والأفراد ارتقاءاً بالمفهوم الدينى وتطور مراحله .

وبذلك قادت الزعامات الدينية والملكية فى النوبة شعائر الايمان

وتعهدتها بالرعاية صروحاً تذكارية لعبادة الآله بمدافن كرمة فى العصور الوثنية ثم الكنائس والأديرة وصوامع النساك والزهاد المسيحيين انتهاءاً بالشهادتين وقيام الممالك والمشيخات الإسلامية ومنشآتها التعليمية ، ثم ان الثقافة السودانية كانت نتاج ضرورى لتخللها هذه الممارسات والعقائد عبر التاريخ.

وأقول وما بناء الاهرامات والنصب والمسلات والنحوت التى تنتصب فى أرض النوبة الا شاهداً تاريخياً عظيماً على ذلك المجد القديم والحضارة التليدة التى تتمتع بها أرض النوبة وكلما نقبنا ازددنا يقيناً أن الحضارة الإسلامية بدخولها النوبة مازجت أمة مشبعة بالايمان والاخلاق وبالارث الحضارى الذى كان له الأثر الكبير على ما بعده.

الفصل الأول

في أن أول إمارة إسلامية في السودان قامت في منطقة المحس في المنطقة المتاخمة للحفير الصغير الى الشمال منه حوالي ٨٦٦م في سدلة

أن مدينة تنري مثلها مثل مدينة سيسة ونوري وشكراوي ، أي أبو فاطمه وسندي وربما (الحفير الصغير والحفير الكبير) فإنما هي مدينة قديمة كانت عامرة كذلك في الفترة المسيحية، التي دامت في المنطقة ما بين القرن السادس وحتى القرن الثالث عشر الميلادي، مع إننا نعرف أن أول إمارة إسلامية في السودان قامت في منطقة المحس في المنطقة المتاخمة للحفير الصغير الى الشمال منه حوالي ٨٦٦-٩٥٠م في سدلة[١]. وكانت هذه الإمارة الإسلامية تحت حكم الملك المسيحى بدنقلا أنتهى. مأخوذ من دور الرحالة العرب والمسلمين في الكشوفات الأثرية في السودان-رحلة إيلياء شلبي لمنطقة المحس (١٦٧٠- ١٦٧١م)

(١) دور الرحالة العرب والمسلمين في الكشوفات الآثارية في السودان - رحلة إيلياء شلبي لمنطقة المحس (١٦٧٠-١٦٧١) للبروفسر علي عثمان محمد صالح قسم الآثار جامعة الخرطوم

فى معرض الحديث عن الحملة الثالثة سنة ١٢٨٩م ،[١] وقد إفتتح الفصل بـ ((أرسل قلاوون جيشا آخر أقوى من

الأول وكان عدده أربعين ألفا.............)) الى أن إنتهى لقوله ((فإنهزم من الجزيرة وهرب الى جهة الأبواب وهى مسافة ثلاثة أيام من جزيرة مقرات ولم تكن فى حدود مملكته .ففارقه من كان معه من السواكرة – وهم الأمراء النوبيون .))

وفى نفس المرجع السابق ولأول مرة يرد ذكر لملك من ملوك النوبيون المحس "الخزرج" المسلمين فقد ذكر فى ص ١٨٩ فى بداية الصفحة ((سنة ١٣٩٦ فى أثناء الثورة التى قام بها بنو كنز فى أسوان التجأ الوالى المملوكى الى ملك النوبة المدعو ((ناصر))[٢] ومن المحتمل أن مقر الملك كان فى ألدو . وفى السنة التالية تبدلت الأمور فى النوبة . فقد رحل الملك ناصر الى القاهرة طالبا معونة من السلطان فأمر السلطان والى أسوان بإمداد ملك النوبة بالمعونة المطلوبة ولم يبين المؤرخ إبن الفرات إن كان هذا الملك مقيما فى ألدو أو فى دنقلا) وألدو هذه على جزيرة صاي التي بنيت عليها قلعة مثل قلعة إبريم (١٥٨٤- ١٥٨٥ م) المرجع نفسه (دور الرحالة العرب والمسلمين) [٣] تحت الحكم المسيحى فى دنقلا آنذاك.

---

(١) الأب الدكتور ج . فانتينى (تاريخ المسيحية)

(٢) الملك ناصر بن الملك جامع وريث مؤسس مملكة المحس الخزرج الإسلامية

(٣) رحلة إيلياء شلبي لمنطقة المحس (١٦٧٠-١٦٧١)........للبروفسر علي عثمان محمد صالح

مع رصيفتها بالبجا تحت الملك عبد الله العمرى وما أعقب ذلك تزامنا فى نفس القرن من الملك عبد الله برشمبو فى دنقلا نفسها مما مهد لقيام مملكة المحس الإسلامية الحرة على أنقاض مملكة سيسب المسيحية و لايزال الجبل الذى كان آخر معاقلها يطلق عليه اسمها وسوف نأتى على ذلك لاحقاً فى مكانه.

أولا :-

لماذا بدأنا تاريخ مملكة المحس الإسلامية ب ٨٦٦ ميلادية ولماذا كانت نهايتها فى ١٩٢٢ وما علاقة ذلك بمملكة المحس الموضوع الرئيس لهذا البحث ؟

فللإجابة بالنسبة للبداية اعتمادا الى ما رواه البروفسير على عثمان محمد صالح عن الكشف الأثرى لإمارة السكراب النوبة المحس والتى قامت فى سدلة (غرب دلقو) وذلك من خلال القباب والقبور التى يرجع تاريخها الى ٨٦٦ – ٩٥٠ للميلاد، أما بالنسبة للنهاية فنرجو أن نشير الى أن آخر ملك فى مملكة المحس الإسلامية قد توج فى عام ١٩١٢م فى جبل سيسب فى المكان الذى توج فيه أول ملك فى نفس المملكة قبل أكثر من ثمانمائة عام وقد حضر هذا التتويج جميع المحس من مختلف مناطقهم بالسودان بما فى ذلك الوفد القادم من جزيرة توتي وقد كان الملك المتوج هو الملك عبد العزيز بن دياب بن عبد العزيز، ثم أعيد تتويجه بواسطة الانجليز بالقصر الجمهورى بالخرطوم بعد أن أصدروا قرارا بانتهاء حكم الملكية على سبيل التوثيق وكان ذلك فى عام وقد تشرف بتكريمه أهله فى منطقة

الخرطوم وما حولها ببرى المحس وجزيرة توتي وكان ذلك فى عام ١٩١٨.

ثانيا :-

كيف نربط بين امارة السكراب بواسطة الأمير سكر وتأسيس مملكة المحس الإسلامية بواسطة الملك جامع؟ وليكون هذا الأمر ممكنا ومنطقيا دعونا ندقق النظر فى ثلاثة نقاط مهمة:

النقطة الأولى

فى نسب المحس "الخزرج" والذى روي عن الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن بن ابراهيم الكباني المعروف بـ الشيخ خوجلي أبو الجاز فى الوثيقة المشهورة والمستفاضة المعرفة وخاصة لرواة ومؤرخي المحس فإنك تجد أن الشيخ خوجلي أبو الجاز رحمه الله يذكر سكر مرتين الأولى عند(سكر بن سالم بن عبد الرحمن) و المرة الثانية وهى مربط الفرس – فى جامع سكر بن حسن بن أحمد فاذا كان سكر مذكور بعد جامع مباشرة فظاهر السياق يدل على أنه أبوه – وهو معروف بالضرورة – يعنى أن سكر هذا أبو الملك جامع، ولا يخفى على أحد أن جامع سكر تعنى أيضا جامع بن سكر ولجامع هذا أخ اسمه سكر أيضا ويمكن أن يكون سكر بن سكر بن حسن بن احمد وهذا موجود عندنا ولنا منه شواهد كثيرة مثل الدائر بن الدائربن أحمد بن دليل المكنابى وأيضا المشرف بن المشرف بن محمد دليل المكنابي، ويحصل هذا عادة اذا مات الأب وفى أحشاء زوجته حمل فانه يسمى على أبيه ان كان المولود ذكرا وهو معروف ومشهور عندنا،

إذ بذلك لا يكون هناك خلط بين سكر الأب وسكر الابن.

وحيث أن محس الشمال والذين نقلوا من وثيقة النسب المستخرجة من الكتب خانة فى القاهرة بواسطة الملك عبد العزيز تؤيد أن هناك سكر بن أحمد بن حسن وأيضا هناك جامع بن أحمد بن حسن وفى هذه الحالة :-

اما أن يكون لسكر بن أحمد ابن اسمه جامع وهو الذى خلفه العرش بعد سكر فى الامارة الإسلامية التى كانت تحت حكم المسيحية وحارب سيسب بعد جلوسه على عرش الامارة دون عمه وأن عمه لم يدخل فى موضوع الخلافة.

أو يكون جامع هذا هو ابن سكر وأن الأخوان جامع وسكر هما ابنا سكربن أحمد بن حسن، واننى هنا لا أستبعد هذا السناريو أقصد (ب) قد حدث لسكر بن سكر الذى أرجح ان صح الفرض أن يكون قد ولد بعد موت أبيه وسمي عليه وبخاصة أن أخوه جامع استأثر بالملك دونه لصغر سنه أى أن جامع جلس على عرش المملكة ولم يبلغ أخوه سكر السنة من عمره وهذا سبب أن أبناء الملك جامع ورثوا الملك من بعده حيث خلفه ابنه الملك ناصر على المملكة بسبب أن أبناء الملك جامع كانوا أيضا أكبر من سكر أو عدد منهم على الأقل الملك ناصر.

النقطة الثانية

توافق الزمن بين سكر الأب (٨٦٦-٩٥٠) والملك جامع (٩٥٠-١٠٥٠) وفى حساب آخر (١٠٥٠-١١٥٠) وبذلك لا يستبعد أن يكون ٩١٠ أو

٩٢٠ الى ١٠٠٠ حيث أن هذه الحسابات تقريبية فالخطأ فى ٢٠ الى ٥٠ سنة وارد ثم ان وراثته للملك من أبيه هو شأن حكام المسلمين فى الخلافة حسب نظام الخلافة الإسلامية وتركه لأخيه الصغير رئاسة السلطة الدينية هو من السياسة ليستقر الملك وبقى هذا النظام فى عقبهم طول مدة حكم الملك جامع الى آخر الملوك. وهذا خلافا للعادة السابقة عند المحس أو النوبة عموما قبل دخولهم الإسلام من التوارث عن طريق أبن البنت .

النقطة الثالثة

الآثار الموجودة فى جبل سيسب والدفوف (أى القلاع) التى تملىء أراضى المملكة من صلب وجبل سيسب وسدلة الى كوكا آخر معاقل المملكة والتى يشهد قصر ملكها الأخير الملك عبد العزيز بن الزبير بن القائم بها حتى الآن ويحتاج الى شيىء من الترميم ليكون شاهدا عظيما لهذه المملكة و أيضا القبور التى لم تكتشف بعد والمنطقة التى قامت فيها هذه المملكة مليئة بالآثار باتظار الكشف الأثرى ولا أهم من مدينة اخناتون التى ترقد الى الجوب الغربى من جبل سيسب وتجاور سدلة من جهة الغرب .

قبل أن ندخل الى تفاصيل وأخبار المملكة أود أن أختم الفصل الأول (السكراب) بأنهم من جهة الأب خزرج ينتسبون الى أبي بن كعب ولكي نؤكد وجود أبناء أبي بن كعب في السودان في ذلك التأريخ بنقل موثق وأن غالبيتهم من العلماء الدعاة لأن هذا لا غيره ما حداهم الى القدوم للسودان والإستقرار فيه فيما بعد . وأرجو أن يكون ذكر هذا

الموضوع في هذا الموقع مناسباً رغم أن ظاهره لا يدل على المناسبة .

ربما كان هذا أقدم ذكر موثق في تأريخ الخزرج المنتسبين الى أبي بن كعب في بلاد السودان هو ذكر وفاة الفقيه البارع أبو الحسن علي بن نوح الأبوي (بضم الهمزة وفتح الباء وكسر الواو) نسبة الى أُبي بن كعب الأنصاري الصحابي ، في أحداث سنة ٧٥١هجرية وكان فقيهاً فاضلاً بارعاً حنفي المذهب نقالاً للحديث حافظاً لمعانيه وكان ينقل الهداية عن ظهر الغيب وأصل بلاده بلاد السودان فيما وراء البحر . وكان أول وقوفه في قرية السلامة عند الفقيه أبي بكر الزيلعي المذكور أولاً ثم دخل زبيد فاستمر مدرساً في المنصورية الحنفية فأخذ عليه جمعٌ كثير وكان مشهوراً بالفقه والصلاح وكان وفاته في أثناء السنة المذكورة رحمه الله تعالى .(١)

---

(١) أورده الأستاذ محمد السيد حسن أرباب في كتابه (كتاب توتي) نقلاً من كتاب العقود اللؤلؤية في تأريخ الدولة الرسولية - وهي دولة نشأت في اليمن - لمؤلفه علي بن الحسين الخزرجي اليمني (توفي في ٢١٨ هج).

الفصل الثانى

أخبار التأسيس وأحوال الملك والرعية فى مملكة المحس الإسلامية

أولا :-

ولمعرفة تأسيس المملكة وأحوال الرعية فى مملكة المحس فإننى هنا أورد رواية لأحد رواة المملكة وهو من أحفاد العائلة المالكة ومن مضيفين وهو السيد/ مقبول بن عثمان بن محمد على بن الملك دياب[1] من ملوك المحس بكوكا وقد روينا عنه طرفا من أخبار مملكة المحس ونظام استخلاف الملك والبيعة والنظام الإجتماعى والإقتصادى السائد وخاصة تلك التى كانت ولعهد قريب سائدة قبل نهاية المملكة بتصرف حيث استبعدت من الرواية الطويلة ما كان خارج نطاق الموضوع المطلوب وأيضا ما كان يشبه الأسطورة مما لا يدخل فى نطاق بحثى هذا.

فعن أخبار مملكة المحس وتأسيسها ذكر الراوى مقبول ((أنه فى عهد أول ملك بمملكة المحس الملك جامع والذى يعتبر المؤسس الأول لهذه المملكة حيث استولى الملك جامع على مملكة سيسب المسيحية بعد معارك ضارية لا زال أهل المنطقة يذكرون طرفا منها الى اليوم وقيل أنه كان فى زمن الملك المسلم عبد الله برشمبو الذى كان حاكما

---

(١) وهو من الرواة الذين إمتازوا بالسماع من الملك عبد العزيز بن الزبير كثير من حكايات المملكة وهو أحد مضيفين وفد الزيارة وهو من روينا منه أغلب معلوماتنا في باب مملكة المحس .

على دنقلا والتى كانت رئاستها فى الغدارهذا كان قد استفادة ملوك المسلمين فى هذه الفترة

مما كان عليه عادة المسيحيين من ملوك النوبه استخلاف ابن البنت على ممالكهم دون جميع الأقارب وذلك بزواج العرب المسلمين من بيوت الملوك مما ساعد الملك جامع للوصول الى سدة الملك ابتداءا ، هو وأخوه سكرحيث تقاسما السلطة فأصبحت سلطة الحكم للملك جامع و السلطة الدينية والقضائية لأخيه سكر وبهذا أصبح سكر امام المسلمين بمملكة المحس وجامع ملك المحس و من ثم أصبح أحفاد سكر هم قضاة الشريعة وأحفاد جامع هم الذين تعاقبوا على حكم مملكة المحس الخزرجية .

هذا وسوف نزيل الحديث عن المملكة بأخبار متفرقة عن موضوعات وأزمان مختلفة، وأهميتها تكمن فى تركها لأثر أو تصحيح لمعلومة ثم بعد ذلك نحاول أن نصل الى نتائج تاريخية أوتساؤلات يقع على عاتق من يتصدى الى بحث مماثل أن يجد لها الأجوبة وذلك فى نهاية هذا البحث .

ثانيا نظام الحكم :-

وعن نظام الحكم فهو الحكم الولائى وهوعلى ما تعارف عليه حكام المسلمين أيام الخلافة الإسلامية ينشدون بذلك تطبيق الإسلام وسننه فى الحكم . ذلك أن قسم المملكة الملك جامع وأخوه سكر المملكة الى ولايات من الجهة الشمالية من المملكة والى جنوبها كالآتى:-

الولاية الأولى : -

من جهة الشمال هى من خور موسى باشا الى صلب و عليها الحاكم دهشب وقد عرفت بولاية الدهشاب وهو من سلالة الملك جامع

الولاية الثانية :-

والتى تليها من جهة الشمال ولاية صلب

الولاية الثالث :-

ولاية المضيقين

الولاية الرابعة :-

ولاية قرقود

الولاية الخامسة :-

ولاية كوكا والتى اصبحت مقر للملك نفسه فيما بعد .

الولاية السادسة :-

بجنوب كجبار

الولاية السابعة :-

ولاية حنك وهى الأخيرة جنوبا

ثالثا النظام الإجتماعى :-

أما النظام الإجتماعى فان رعايا مملكة المحس يتكونون من طبقة الولاة أو الحكام ثم يليهم قضاة الشريعة ثم الدعاة والذين غالبا ما تكون لهم خلاوي لتحفيظ القرآن وتعليم الفقه ثم طبقة الحداديين لأهمية هذه المهنة فى المملكة حيث تدخل فى الصناعات اليدوية التى يحتاجها المجتمع فى نواحى عدة بل يوزع الحدادين على جهات المملكة المختلفة بنظام خاص لأهمية هذه المهنة بالنسبة للحكومة أيضا فى صناعة عدد الحرب والزراعة ثم يأتى بعد ذلك رؤساء المشارع لأهميتها فى ربط المملكة داخليا وخارجيا فهى نقاط عبور هامة فى ذلك الوقت حيث لا توجد كبارى أو وسيلة عابرة غيرها ويصعب على المسافر أن يعبر بغيرها لأنها مرتبطة بالطرق البرية المعروفة الى المناطق المختلفة داخل وخارج الامارة وما فيها من خدمات ثم طبقة المزارعين وما يليهم من عمال وبخاصة أن هذا المجتمع مجتمع زراعى فهم يمثلون العدد الأكبر فى المملكة ولهم الأهمية الكبرى رغم أنهم ذكروا آخرا وذلك للدور الحيوى الغذائى وأيضا فى تحريك إقتصاد المملكة.

رابعا النظام الإقتصادى

وتعتمد فيه المملكة على النظام الإسلامى وعمدته الزكاة ويمثل نفس نظام الجباية فى الإسلام وتجارة المحاصيل وعروض التجارة وغيرها ثم تصدير المحاصيل مثل القمح والفول المصرى والبهارات شأنهم فى ذلك شأن مجتمع وادى النيل فى شمال السودان .

الفصل الثالث

فى نظام استخلاف و تتويج ومبايعة الملك

ويبدأ أولا بإعلان الملك الخليفة فى المقابر بعد انتهاء مراسم الدفن بحضور الوفود التى تمكنت من الحضور للمشاركة فى المراسم وجمهور المشيعين، ثم بعد ذلك ينعقد مجلس الشورى فى طابية تقع شمال طابية الملك عرفت بطابية حسن (أوحسن نكي) وحسن هذا هو حسن بن سكر وأحفاده هم قضاة الشريعة المناط بهم عقد هذا المجلس وهم من أحفاد سكر ومنهم المدناب وغيرهم من بنى عمومتهم وذلك ايذانا منهم ببداية العمل على تتويج الملك الجديد.

التتويج

يتوج أكبر أبناء الملك على عرش المملكة وحيث أنه تم إعلان ذلك وتم انعقاد مجلس الشورى يحدد الميعاد وعادة يكون بعد سبعة أيام من وفاة الملك السابق أما المكان فكان جبل سيسب تيمنا بتتويج ملكهم الجد المؤسس جامع حيث أصبح ذلك هو التقليد الملوكى لتتويج ملوك المحس بعده .

وفى اليوم السابع يعمل رعايا المملكة على ذلك بعد أن وزعت لهم الأدوار لاحتفالية اليوم الأول وهى الزفة من مقره الى مكان التتويج حيث يتم التتويج فى اليوم الأول، وفى اليوم الثانى بجبل سيسب تبدأ الاحتفالات الرسمية بملكهم الجديد ثم يزف الملك راجعا الى مقر

حكمه الذى كان فى سدلة ثم تحول الى كوكا فى عهد الملك دياب نصر.

تفاصيل مراسم التتويج

عندما ينادى الموكل لهم بإعلام الناس بأن الملك يتأهب للتحرك لجبل سيسب ترافقه وفود المحس من المناطق المختلفة فى السودان. وبهذه المناسبة فقد أخبرنى الراوي أن سمع من عمه الملك عبد العزيز أن من بين الحضور وفد جزيرة توتي وفيهم أو عليهم عبد الرحمن جميل الله فتتجمع الوفود ومعهم ذبائحهم الذين يودون المشاركة بها فى هذه المناسبة ، ثم بعد وصولهم جبل سيسب تتحلق الوفود ويضربون النحاس ايذانا ببداية احتفال التتويج بجبل سيسب، ثم يصعد الملك ومعه قضاة الشريعة تزفهم الوفود قبل صلاة الظهر، ثم فور وصوله لموقع التتويج يستقبل الملك القبلة ثم يقوم المسؤول من قضاة الشريعة بوضع العمامة الملكية وفوقها تاج مملكة المحس يساعده فى ذلك قضاة الشريعة بالمملكة وآخر من كان مسؤلا عن التتويج هو القاضي طاهر أو كما يلهجها المحس (طاهر قاضي) وأعتقد أنه جد السيد معتمد دلقو يوسف طاهر.

يصلون الظهر فى جماعة ثم يدخل الملك غرفة التتويج لاستقبال الوفود القادمة لمبايعته ثم عقب ذلك يجلسون على الموائد وأهم ما فيها ذلك الشراب الذى لم يفارق موائدنا حتى اليوم وخاصة فى المناسبات ونخص عيد الأضحى والذى كان لعهد قريب جدا لا يفارق

موائدنا، ألا وهو الشربوت فهو شراب احتفالية التتويج عند ملوك المحس .

وفى صباح اليوم الثانى يزف الملك الى مقر مملكته وتستمر الاحتفالات الى أربعين يوما، ثم فى الختام ينعقد مجلس الشورى ومعه رؤساء الوفود من المناطق المختلفة لحضور توزيع مهام المملكة الخاصة بالملك الجديد وتنتهى الاحتفالات بنهاية اليوم الأربعين واستلام وكلاء الملك مهامهم. وبهذا نختم فصل أحوال الملك والرعية

وفى الخاتمة نورد بعض الأخبار التى وردت عن نفس المصدر فيما يخص مملكة المحس :-

نذكر هنا أولاد الملك جامع والذين تولى الحكم من بعده الى آخر من ملك المحس وهم :-

الملك الثانى الملك ناصر (أو ملك الناصر بلهجه أهلنا فى الشمال)
الملك الثالث الملك ناصر بن دياب بن الملك ناصر بن الملك جامع الحفيد (أو ملك الناصر بن دياب بن ملك الناصر بن جامع).

وبالرجوع الى نسبة ملوك المحس والتى وجدت فى وثيقة استخرجها الملك عبد العزيز بن الزبير من الكتب خانة فى القاهرة عام ١٩٥٢ الا أن لهجة الوثيقة تدل على أنها منقولة بالاملاء من السماع وليس أصل الوثيقة وهى مكتوبة بالآلة الكاتبة وبها شيء من التصحيف عموما وتبيين نسب الملك عبد العزيز كالآتى:-

الملك عبد العزيز بن الزبير بن دياب بن دياب نصر بن همد بن شلبى

بن دياب بن عبد الله بن أورسعد بن أرباب بن عبد الله بن أرباب بن ملك الناصر بن دياب بن ملك الناصر بن جامع.

هذا وقد أوردت الوثيقة المذكورة أولاد شلبى وهو الجد الرابع للملك عبد العزيز ولعله محطة هامة فى سلسلة ملوك المحس من أحفاد الملك جامع حيث ذكر أن له من الأولاد همد وهوجد الملك عبد العزيز وعبد القادر بصلب والشيخ ادريس بحنك ومحمد بواوه و على بكبه وهو والد حاكم واوبو شوشة (أو واوا بوشوشة) ووالد على وعمر.

ثم ذكر الراوى أن أولاد جامع المعروفين لديه أو لديهم هم أربعة ناصر وحسن وحسين وجلال الله، وذكر أنهم حينما دخلوا جزيرة أرتمرى قسموها فيما بينهم كالآتى:-

الجزء الشمالى لحسن والجزء الجنوبى لحسين والجزء الغربى لجلال الله والجزء الأوسط لناصر مما يدل بأن أهمية جزيرة أرتمرى بالنسبة للمملكة لا تقل عن سدلة وكوكا .

ومن الأخبار المتأخرة أنه عندما ألغى الانجليز حكم الملكية لاستبداله بنظام الإدارة الأهلية رفض الملك عبد العزيز ذلك لأنه ملك مبايع بيعة شرعية ويروى عن الملك عبد العزيز أنه عندما واجه المفتش الانجليزى فى دلقو بهذا الرفض ضربه بعصى كانت بيده فكتب المفتش للحاكم العام للسودان مستر تومسون بذلك فاستنكر ذلك الرفض حيث وافق أهل السودان على ذلك النظام ولم ترفضه أى حهة أو قبيلة بعد اعلانه. هذا وقد أرسل الحاكم العام لجنة للتحقيق فى ذلك وكانت ضمن توصيات اللجنة أنها ترى أن الملك المبايع لا يمكن

أن يجبر على التنازل الا أن يكون ذلك برغبته.

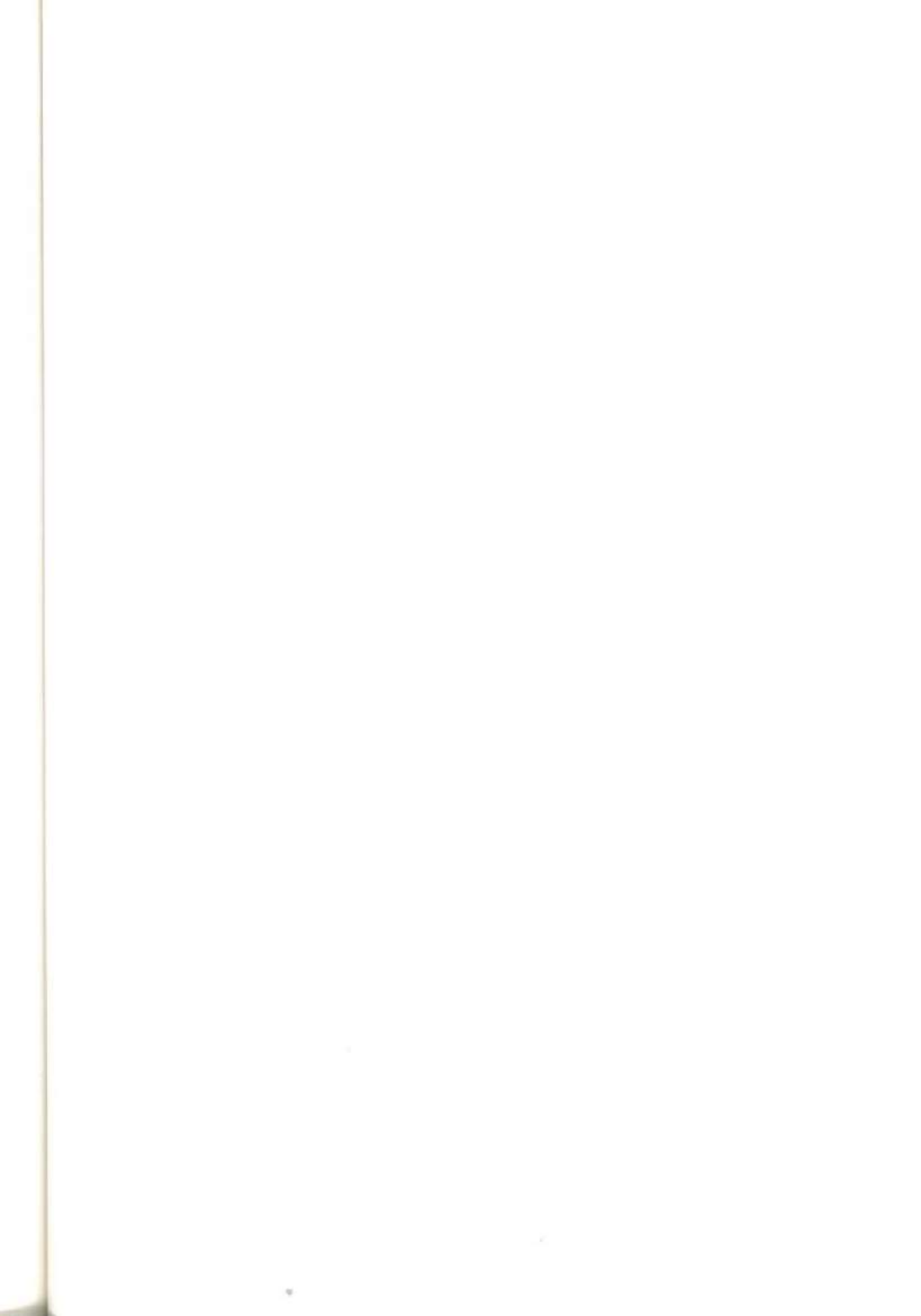
هذا وقد تم تنازل الملك عبد العزيز من تلقاء نفسه وبرغبته دون اجبار الا أن الأمر لا يخلو من حيلة ومكر من الانجليز والمعروف أن الانجليز قاموا بتتويجه للمرة الأخيرة على مملكة المحس فى سراى الحاكم العام (القصر الجمهورى حاليا) سنة ١٩٢٢ميلادية.

وكان لرفض الملك عبد العزيز الإدارة الأهلية أثر سالب واضح وذلك فى تهميش المحس فى هذا النظام فقد منحوا أضعف عمودية وهى كوكا وتحتها ثلاثة مشائخ ولم يعطوا ناظر حيث يضمن الناظر تنفيذ جميع الأحكام الصادرة من المشائخ، وبعدمه تكون الحكام حبر على ورق وقد روى محدثنا مقبول عثمان عن جده محمد علي كان هو شيخ البلد أيام الإدارة الأهلية بكوكا وكان يجمع بين السلطة الدينية والدنيوية ولا زال العريس المحسي يغنى له بأمجاد مملكة المحس عند ربط الضريرة كعادة من العادات التى استمرت بعد نهاية المملكة والتى هى عادة أهالى توتي الى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى فى العرس والختان .

وانطوت بنهاية حكم الملك عبد العزيز فى عام ١٩٢٢م زمن التتويج الأخير الذى تم بسراى الحاكم العام (القصر الجمهورى حاليا) والذى كرمه فيه أهله ببرى وبجزيرة توتي نهاية لملكة المحس التى استمرت على مايزيد على الثمانمائة عام.

الباب الثالث

الوجود المحسي الإسلامي القديم بإقليم الخرطوم وأثره في التشكيل الديموغرافي والثقافي بشرق النيل والنيل الأزرق والأبيض وعموم السودان الأوسط



الفصل الأول

أثر المحس الديموغرافى والثقافى على السودان الأوسط

لكى أمهد لديموغرافية المحس فى أوحول ملتقى النيلين كان لابد لى من ذكر تحرك كل القبائل العربية لتكوين ديموغرافية الوسط عموماً وأن أذكر أثر المحس الديموغرافى والثقافى على السودان الأوسط حيث لم يكونوا منفردين فى ذلك الا أن خيارهم فى الإستقرار فى مناطق بعينها كان فريداً مما كان له الأثر لاحقاً على معظم القبائل بل كان له الأثر الواضح على كل السودان ويكفى أن أحد خياراتهم صار فيما بعد العاصمة القومية للسودان .

فأذكر من قراءاتى لبعض الجغرافيين والمؤرخين وواقع الحال لخيارات الإستقرار لقبائل الوسط حول ملتقى النيلين رغم أن العرب منذ دخولهم للسودان كانوا متحركين الى الوسط بحكم سعة الأراضى وخصبها كان جنوباً مع النيل الا أن ذلك التحرك لم يكن نشيطاً وقد نشط فى مرحلتين تاليتين كان لهما الأثر الواضح جداً فى تكوينهم لدموغرافية الوسط ولذا يظهر لى أن التحرك القبلى الى وسط السودان قد تم على ثلاثة مراحل رئيسية كان لها الأثر الواضح فى تكوين ديموغرافية وسط السودان :-

المرحلة الأولى

هى في دخولهم الأول مع بداية القرن الثاني الهجرى حيث كانت الاتفاقية التى عرفت ب (اتفاقية البقط) تنص على حرية حركة العرب المسلمين والسماح لهم ببناء مساجدهم الخاصة بهم ومساعدتهم بل ذهبوا لأبعد من ذلك وهو أن يكون الطرف الثانى مسؤلاً عن نظافتها وحمايتها وهى المرحلة الأولى للاتجاه نحو أطراف السودان المختلفة بما فى ذلك الوسط الذى أتحدث عنه الآن وهذه المرحلة رغم أنها كانت ثقيلة التحرك لأنها كانت فردية ولم يكن الحافز الأكبر فيها غير الكلأ والماء والتوسع رغم الاحتفاظ بالحافز الدعوى الا أن الانشغال فيها كان منصباً فيما ذكرت سالفاً . وقد أرخ لهذه الفترة زيارة العالم الجغرافى أحمد بن حوقل كشاهد عيان فى القرن الرابع الهجرى نهاية القرن العاشر الميلادى القرن.

المرحلة الثانية

وهى التى تمت بعيد سقوط المقرة فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى وهى التى تنادت لها مجموعة القبائل المسماة ب (جهينة) والتى أرخ لها بن خلدون وذكر فيما ذكر عن تلك المجموعة أنها تمثل مجموعة كبيرة من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونهم المختلفة وقد ذكر غير واحد أن "الخزرج" كانوا ضمن هذه المجموعة كما ذكر المؤرخون أنها كانت عنيفة أى هجرتم وتحركهم وتمركزت فى ثلاثة محاور فى الشمال السودانى وفى أرض البطانة وفى الجزيرة وكانت من أجل حصار سوبا بغرض اسقاط دولة علوة المسيحية جهادياً

وقد ذكر المؤرخون ومنهم الأستاذ الدكتور مصطفى محمد مسعد ناقلاً لهذا التحرك عن بن خلدون والمقريزى وهاملتون وأندرسون وماكمايكل وعباس عمارة أن تلك القبائل لم يجمعهم كيان سياسى لينظمهم لإدارة تلك العملية الجهادية وينظم الحياة السياسية بعد اسقاط علوة مما مهد لدمرى سوبا خطف هذا الإنجاز منهم والحاقه بأعمالهم بعد قرن من الزمان من تمامه.

المرحلة الثالثة

والتى فيها كان الإستقرار لتشكيل ديموغرافية الوسط بعد سقوط سوبا حيث كانت خيارات القبائل للإستقرار تبدأ من حيث انتهى المجاهدين وذلك أن الشيخ الصديق أحمد حضرة ذكر بأن هناك مجموعة من القبائل تسمت برفاعة وهى غير رفاعة الاشراف وغير رفاعة المنطقة المعروفة الآن بل هى مجموعة من القبائل العربية المتكتلة لحصار علوة أن تلك المجموعة وصلت الى حدود الحبشة ولعلة كل المجموعات وصلت الى هناك باعتبار أن فلول المدافعين تراجعوا الى حليفهم الرئيسى الأحباش ومن هنا ومن واقع الوجود القبلى فى وسط السودان كان خيار الأشراف الإستقرار فى الجزيرة والكواهلة فى شمال الجزيرة وجنوب ملتقى النيلين وغيرهم من القبائل وعلى الخصوص فقد كان خيار المحس "الخزرج" أسوأ خيار فى ذلك الزمان حيث اختاروا ملتقى النيلين لخصوبة الارض وطمعاً فى تلك الجزيرة التى كانوا يغازلونها من الجهة الشرقية منها ولأنهم ورثوا حب العيش على الجزر من أهلهم المحس حيث كانت تمثل نفس

المنطقة التى جاءوا منها وسؤها كان فى المستنقعات التى كانت تحيط بها والغابات والحيوانات المفترسة التى لم يألفوا العيش مع كثير منها الا أنهم نجحوا وبمعيتهم الجعليين الجموعية والدرايسة وبعض الأشراف بالإستقرار فى المنطقة وجذب جميع أطراف السودان اليها بعلمهم الذى وفد اليه الطلبة من جميع أطراف السودان وأيضا من خارج السودان لتصبح العاصمة الأهلية الثقافية للسودان والتى عرفت ببر المحس ثم قرية أرباب العقائد المحسي ثم خرطوم توتي قبل أن يتخذها الأتراك العاصمة السياسية القومية للسودان والى يومنا هذا باستثناء الاثنى عشرة سنة لحكم المهدية.

بقى لى أن أتتبع تحرك "الخزرج" المحس من مبدئه حيث أن بحثى هذا عن تحركهم وأثر ذلك ديموغرافياً وثقافياً حيث أفردت له الباب الثامن ليكون تمهيداً لبحثى القادم ان شاء الله وقدر.

بل جعلت من حساب الأزمان بأسماء شجر العوائل المعتمد من مؤريخي النسب حيث سجل ذلك عن الشيخ خوجلي وعن الشيخ الصديق أحمد حضرة وعند غيرهم من مؤرخي وشيوخ المحس اضاءات لمعرف وقت إستقرار جزء من قبيلة المحس بمنطقة التقاء النيلين بمعية بعض القبائل العربية المسلمة معهم وحولهم وفرضيتى أن ذلك كان قبل القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي .

وفى هذا الجزء نذكر ثلاثة روايات اثنين من مؤرخين وأخرى لرواة المحس الثقات . والرابعة إستنباط وقرينة هامة خاصة بالمحس ثم أعرج على ذكر بعض القبائل المسلمة وهذا على حسب الدراسة يشكل

المجموعة الأولى للتجمع الإسلامى قبل تجمعهم تحت لواء العبدلاب ثم أقارن بين التجمعين . ولإثبات ما ذهبت إليه.

الرواية الأولى :-

للسرفيلد هول وقد أرجع ذلك الى النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى.

الرواية الثانية :-

للدكتور أحمد أحمد سيد أحمد فى كتابه تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى١٨٢٠-١٨٨٥م (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة تاريخ المصريين تحت الرقم ١٨٥) والذى أورد فيه مخالفته للفهم الأول والخاص بالسرفيلد هول ومعللا ذلك بقوله أن الشيخ ادريس الأرباب هو أقدم ما أمكننا العثور عليه من المحس المشهورين فى المنطقة وقد ولد فى سنة ١٥٠٤م بجهة حلفاية الملوك وعاش والده أيضا ومات فى هذه المنطقة فيتضح أن مجىء المحس كان فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى على أقلة تقدير.

الرواية الثالثة

وهو أيضا من روايات الدكتور أحمد أحمد سيد أحمد عن رواة تاريخ المحس الثقات على حد قوله وهم الشيخ ابراهيم صديق (بكسر الصاد وتخفيف الدال) والراوية عبد الرحمن جميل الله وأحمد الأحمر رحمهم الله (أنا وكثيرين ممن يعرفونهم يعتقدون فيهم ذلك) فى مقابلة معهم فى سنة ١٩٥٨ وجميعهم اتفقوا على أن إستقرار المحس

فى هذه المنطقة كان فى سنة ٨٠٠ للهجرة تقريبا (أى فى حوالي ١٣٩٧-١٣٩٨ للميلاد)، أو قبل ذلك ويعتقد الدكتور أن هذه الرواية هى الأقرب للصواب لقربها لما ذهب اليه هووأحسب أنه الزمن الذي دخل فيه المحس "الخزرج" جزيرة توتي حسبما سوف يرد لاحقاً إن شاء الله.

والملاحظ، اعتماد الروايات الثلاثة على التقدير وافتقارها للدليل المادى من أثر أو وثيقة تبين الزمن الحقيقى لوصولهم هذه المنطقة فهل لنا اعتماد واحدة من هذه الروايات وهل هى مقبولة من وجهة نظر المؤرخين وهل الناحية العلمية لثبوت أو نفى الحقائق التاريخية تؤيد أى من الأقوال أو الروايات الثلاثة. أم أن المقصود هو أن هذا ما يمكن قوله حتى الآن، ويجب علينا مواصلة البحث. والموضوع قيد البحث المنهجى بالفعل ولا زلنا فى بداية الطريق ونحن نحتاج أن نتطلع على كثير من المعلومات فى داخل المكتبات الكبرى مثل مكتبة جامعة الخرطوم والمراجع الموجودة بها والمخطوطات بدار الوثائق وبأيدى أهلنا فى مناطق المحس المختلفة أو تلك الموجودة خارج السودان وخاصة بتركيا ومصر وانجلترا فضلا عن المواقع التى لا زالت بكر فى السودان وتحتاج الى تنقيب من جهة آثارها ومقتنياتها وما تحوي من وثائق وغيرها.

والحقيقة الثابتة لدينا حتى الآن هو ما ورد في الموسوعة التأريخية للشيخ الصديق أحمد حضرة ونصها يقول: ((ولاد مشرف بن زايد وهم حمد ورحمه أخيه ويسمونهم (الحمدلاب) سكان العيلفون لجهة أم قحف، منهم أولاد قاجراب بجهة أب عشر وأولاد أب عيسى وأولاد

إمام وهما محمد وحاج بن عبد الله بن سليمان بن زايد بن عجم بن زايد بن محمد محسن الذي إنتسبت له قبايل المحس إنتهى)).
ويمكنك تقدير زمن وجود حمد ورحمه ومحمد وحاج إذا علمت أن جد الشيخ إدريس المشهور المسمى بفلاح يعادل في الشجرة وفي زمن وجوده مشرف بن زايد وسليمان بن زايد ذلك أن فلاح هو الجد السابع للشيخ إدريس بن الأرباب مؤسس العيلفون الحديثة ، بمعنى أنهم إستقروا بهذه المنطقة قبله بأكثر من ٢٠٠ عام أي سنة ١٣٠٧ أو قبل ذلك

وللتأكيد على أن تساؤلى وما لاحظته كان منطقيا فاننى سوف أعرض على أهل الفكر وأهل التاريخ حادث تاريخى حدث فى منطقة التقاء النيلين لنرى ماذا يجد فيه أهل التاريخ وماذا يجد فيه أهل الجغرافيا والإجتماع.

وهو الممالك الإسلامية السودانية فى القرن الرابع الهجرى (أى قبل اكثر من أربعة قرون من قيام العبدلاب والعنج وقيام دولة الفونج الإسلامية) ولإثبات أيضا أن محس الوسط قد قدموا الى منطقة إلتقاء النيلين قبل القرن السادس عشر الميلادى. فإننى أبدأ بما ذهب اليه د عمر يوسف الطيب عالم الإجتماع السودانى فى فرضيته عن تحرك محمد محس من الشمال الى أواسط السودان. ذلك أنه قال ((ربما كان محمد محس قائدا لإحدى تلك المجموعات التى كان لها الأثر المباشر فى سقوط دولة علوة فى حوالى عام ١٢٢٣م)).

ومن ثم أشحذ له الدلائل والقرائن لإثباته وخاصة أن المؤرخ المحسي

العلامة الشيخ الصديق أحمد حضرة قد ذكر بأن هناك من المؤرخين من ذكر بأن جزء من المحس التقوا بقبيلة رفاعة ونزلوا معهم جنوبا بالنيل الازرق حتى حدود الحبشة، والمعروف انهم عادوا راجعين شمالا بالنيل الازرق نفسه وإستقروا في مناطقهم المعروفة باسمهم وحتى قبيلة رفاعة ليست المعروفة الآن بهذا الاسم وانما المقصودة هنا أنها مجموعات من عدة قبائل عربية مسلمة تسمت برفاعة مما يوضح أن حالة العصر كانت كما وصفها الدكتور عمر يوسف الطيب بالحركة وان خطهم الذى ساروا عليه ذهابا كما ذكره الشيخ الصديق حضرة هو خط علوة على النيل الازرق اعتبارا من نهر النيل جنوب نهر عطبرة مرورا بالنيل الازرق حتى حدود الحبشة. وهذا ما يعضد اشتراك قائدنا محمد محس بمجموعته مع تلك المجموعات المسماة برفاعة وان هذه الرحلة كانت بسبب الجهاد الإسلامى لاسقاط علوة. وقد تفرق ابناء محمد محس واحفاده في نواحي البطانة مع الشكرية وفي السافل مع الجعليين وحتى في كردفان وشمال دارفور. وهذا هو الذي ذكره الدكتور/ عمر يوسف الطيب وكان من قراءته لهذه الفترة حيث يذكر كثير من المؤرخين ان هذه الفترة التي سبقت قيام دولة الفونج الإسلامية ظلت مجهولة بالرغم من انه معروف ان العبدلاب هم أيضا مجموعات لقبائل عربية إسلامية مساندة للمؤسس الاول عبد الله جماع وما اللقب الا دليل على ذلك التجمع، وما التجمع الا دليل على صورة وشكل القبائل فى تلك الفترات قبل تدمير سوبا وأمرهم بالرحيل الى سنار إيذانا بنهاية دولة علوة نهائيا وقيام الدولة الإسلامية السودانية الحرة على أنقاضها وهذه المجموعة

العبلاب ومساندوهم من القبائل العربية الإسلامية هى الشق الاخر المؤسس لدولة الفونج في اوائل القرن السادس عشر الميلادي.

ان تعاون دولة الفونج الإسلامية مع علماء المحس الإسلاميين مثل الشيخ ادريس بن محمد الأرباب وأرباب العقائد وغيرهم بعدهم يمثل اعترافا ضمنيا منهم بفضل وسبق وريادة المحس الدينية والسياسية لهذه المنطقة وبخاصة ان السلطة الدينية كانت تشكل الشق الثاني مع السلطة السياسية للملك أو الحاكم.

الفصل الثاني

زيارة العالم الجغرافى العربى المسلم أبو القاسم بن حوقل النصيبى للسودان فى القرن الرابع الهجرى

هناك أحداث تاريخية كثيرة جديرة بالبحث بالشمال والشرق الافريقى على ضؤ هذه الزيارة والزيارات المماثلة لرصفائه من علماء ورحالة ومسافرين عابرين عن طريق الدولة السودان في العصر الوسيطة أو بما عرف (بالقرون الوسطى) عند المؤرخين وخاصة عبر منطقة التقاء النيلين فى زمن دولة علوه المسيحية قبل وبعد سقوطها و قبل وبعد تدميرها أيضا.

وقد كان بن حوقل أحدهم وكان قادما من مصر عن طريق أسوان ملتزما نهر النيل مع بعض الانحرافات شرقا ليشاهد أرض البجه ثم قرى منطقة البطانة ثم مشاهدته لنهرى القاش وعطبرة ثم عودة الى النيل ثم الى منطقة التقاء النيلين فسوبا الى جنوب النيل الأزرق كما عبر عن حدود رحلته فى الأزرق بأنها الى آخر بلد كرسى ولم يدخل طبلى التى تفصل علوه من الحبشة بل سمع وحكى عنها وأيضا زيارته لمنطقة بحر أبيض والى الغرب منها.

ذكر أبو القاسم أحمد بن حوقل النصيبى فى كتابه صورة الأرض طبعة دار صادر ببيروت والذى يحتوى على نص النسخة المرقومة

٣٣٤٦ المحفوظة فى خزانة السراي العتيق فى اسطنبول وكذلك على صورة هذه النسخة وقد استتم بمقابلة نص الطبعة الأولى و بعض المصادر الأخرى(الطبعة الثانية –القسم الأول –) طبع فى مدينة ليدن بمطبعة بريل فى ١٩٢٨ ، وفى نسخة (خزانة السراى العتيق فى استنبول والتى نسخت فى سنة ٤٧٩ للهجرة) انه بدأ سفره لسبع خلون من شهر رمضان فى سنة ٣٣١ للهجرة وربما لديه ذكر فى نسخة أخرى لوصوله لهذه المنطقة سنة ٣٦٠ هجرية كما ذكر ذلك الدكتور جعفر ميرغنى والذى كان له الفضل الكبير فى احالتنا لهذا المرجع البالغ الأهمية وعن ماذا كتب ودون من مشاهداته وماذا كان وصفه للحياة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية لما ولمن وجد فى منطقة المقرة وعلوه على الخصوص وسوف أنقل النص كاملا فقط دون زيادة أو نقصان مع التقديم له كما فعلت أو التعليق عليه مع اشارات مفيدة للنصين و لما سوى النصين المختارين .

كتب أبو القاسم أحمد بن حوقل عن مشاهداته لعلوة ولممالك إسلامية صغيرة تحت مملكة علوه المسيحية(١) عن النوبة يقول ((ومن أعمر بلادهم نواحى علوه وهى نواحى لها قرى متصلة وعمارات مشتبكة حتى أن السائر ليجتاز فى المرحلة الواحدة بقرى عدة غير منقطعة الحدود ذوات مياه متصلة بسواقى من النيل وكان ملكهم وأنا بالناحية أسابيوس أو(أساتيوس) كرجوه بن جوتى وقد خلا له فى ملكه سبع عشرة سنة، وتوفى فجلس ابن أخته اسطابنوس بن يركى(أو يزكى) وهو مقيم فيهم الى وقتنا هذا و من سنة جميع السودان اذا هلك

(١) صورة الأرض لأبي القاسم أحمد بن حوقل النصيبي القرن الرابع الهجري

الملك أن يقعد ابن أخته دون كل قريب وحميم من ولد وأهل وطول بلده من ناحية المقرة الذى هو آخر ملك دنقلا ، فى طاعة العلوى الى بلد كرسى آخذ على النيل، ومسافة ذلك بالطول شهر واحد وعرضه من النيل الى تفلين ويكون ذلك ثمانية مراحل مشرقة (براء مشددة مكسورة) وفى خلال ذلك النهر المعروف بسنسابى ويفرع الى النيل وأصله من ناحية الحبشة والنهر المعروف بالدجن (بضم الدال وسكون الجيم) يأتى من بلد الحبشة فينقطع فى أعمال دجن

ومزارعها ودجن هذه قرى متصلة ذوات مياه ومشاجر وزرع وضرع ، والى وسط هذا الوادى تفلين قرى أيضا للبادية منهم ، ينتجعونها للمراعى حين المطر ولهم ملك مسلم يتكلم بالعربية من قبل (بكسر القاف وفتح الباء) صاحب علوه ويختص أهل تفلين بالابل والبقر ولا زرع لهم ، فيهم مسلمون كثيرون من غير ناحية على دينهم يتجرون ويسافرون الى مكة وغيرها.

والملاحظ أن هذا كان قبل أكثر من ألف عام من الآن وأكثر من خمسمائة عام من قيام دولة الفونج الإسلامية وهى الأكبر والتى قامت على أنقاض علوه وليعلم أن الممالك الإسلامية العربية كانت موجودة منذ ذلك التاريخ وأن الملك جامع سكر ملك المحس المسلمين ربما كان منهم وأنه لولا ازدياد عدد هذا النوع من الممالك الإسلامية و رعاياها من المسلمين لما تشكلت الأرضية الصالحة لقيام دولة الفونج وأن دولة الفونج لم تقم من فراغ ولا يكفى تحالف شيخين من عظماء قبائلنا فقط لقيام هذه الدولة الإسلامية الفتية دون ما ذكرت وانما هو أعداد تاريخى تراكمى للتحول الى الإسلام منذ قرون سبقتها.

(و بخاصة ان علمنا أن علوه هى الأقوى حيث يقع تحت حكمها ملك المقرة ومريس أى أن دولتها من طبلى جنوبى النيل الأزرق من جهة الحبشة الى أسوان شمالا) .

وفى ما ذكره عن النوبة أيضا المعروفون بكرسى وهم آخر حدود ملك علوه ويليهم طبلى وهم خارج حدود علوه وما ذكره عن نوبة الجبال أوجبال النوبة واشارته للنيل الأبيض والى جزيرة توتي تحديداً في نصه (ومن غرب النيل نهر يجري من جهة المغرب كبير غزير الماء يعرف بالنيل الأبيض وعليه قوم من النوبة وبين النيل الأبيض وعمود النيل جزيرة وأنا أعتقد أنه يقصد جزيرة توتي لسببين الأول لأن روايات الأجداد المتواترة تحكي بأن الوحوش المفترسة كانت داخل توتي وأن أبناء مرزوق (أهالي بري الآن) كانوا يسكنون بر الخرطوم ولكن يبيتون بشاطيء جزيرة توتي خوفاً من الحيوانات المفترسة وأما السبب الآخر هو وصفه للنوبة الذين كانوا يسكنونها بمن لا يقدر لإمتناع بجانبه أن يحاط بمعرفته ، فهذه الصفة ظلت لأهلنا بتوتي الى زمن العمدة أحمد ود إبراهيم رحمه الله ورغم ذلك فإن هناك رأي مخالف لهذا التصور وهو أن المقصود هو أرض الجزيرة المعروفة بهذا الإسم حالياً وهو رأي معتبر لوجود مؤيدين معتبرين له ولا نستبعده. وهذا نص بن حوقل الكامل عن مشاهده:-

(وذكر قوم أنهم يجتازون فى أعالى هذا النهر أعنى النيل من أعالى بلد كرسى ببلد طبلى وهو منتهى ملك علوه على النيل فلا يخالطونهم ولا يتاجرونهم عراة حاسرين ولا يعلم ما غذاؤهم ولا كيفية سيرتهم، وأهل كرسى أصحاب زفال وهو الجلد الذى يتزرون به عرضا

ويستخرج طوله من تحت الأفخاذ فيغرز تحت السرة فيما انعقد من زفال ومن غرب النيل نهر يجرى من ناحية المغرب كبيرغزير الماء يعرف بالنيل الأبيض وعليه قوم من النوبة وبين النيل الأبيض وعمود النيل المتقدم ذكره ببلد علوه جزيرة لا يعرف لها غاية بها جميع الوحش ويسكنها النوبة والكرسى ومن لا يقدر (بضم الياء وسكون القاف وفتح الدال) لإمتناع جانبه أن يحاط بمعرفته. ومن غربى هذا النيل الأبيض أمة يعرفون بالجبليين فى طاعة ملك دنقلا هو ملك المقرة ومريس، ومريس فهى من حد أسوان الى آخر بلد المقرة وبين علوه والأمة المعروفة بالجبليين مفازة ذات رمال الى بلد أمقل) أنتهى.

والواقع أن مشاهدات الرحالة وخاصة منهم الجغرافيين وبنقلهم لأحوال من التقوا بهم الإجتماعية والإقتصادية والسياسية تشكل اضاءات تاريخية مهة جدا وبخاصة للذين لم يتركوا لنا آثار أو وثائق يمكن من خلالها معرفة ذلك و ان لهذا العالم الجغرافى أحمد بن حوقل مشاهدات كثيرة عندما زار إقليم شمال وشرق إفريقيا أرجو من الله أن ييسر لى نقل ما شاهده هو وكل من زار هذه المنطقة من رحالة وعلماء وجغرافيين فى مختلف العصور التاريخية فى مرجع واحد لتكتمل الفائدة للباحثين . ولربما غطوا بخبر على شاردة أو لهم واردة كنا فى أمس الحاجة لها .

الفصل الثالث

هجرة المحس الى وسط السودان وتأسيسهم جزيرة توتي

بخصوص هجرة المحس الى منطقة الوسط ومركزها جزيرة توتي وهذا غير وفد المقدمة حيث كان سببها التضييق على مملكة علوة المسيحية و تاريخ تأسيس جزيرة توتي مركز المحس بوسط السودان أود أن أأكد أن هذه الرحلة كانت لقبائل متعددة مع المحس منهم الجعليين من طريقين الجموعية من بحر العرب ثم كردفان والقسم الآخر من الشمال والكوأهلة والجزء الذى اطلق عليه (جهينة) حتى أنه تضمن المحس فى بعض المراجع حيث عدها بعضهم أنها من جهينة و الأشراف وكل قبيلة كان لها خيار في المنطقة التى تتناسب وطبيعة عملها ولم يتشكل منهم كيان سياسى واحد الا أن غالبيتهم من الدعاة والمجاهدون وأغلبهم كان يمارس نشر القرآن والعلم وهذا له مكان آخر للتبسط فيه فتوزعوا حول منطقة التقاء النيلين من مقرب ومبعد الا أنه بالضرورة كان حول سوبا عاصمة دولة علوة .

فبالنسبة للمحس كنت قد تكلمت فى مسألة المحطات التى تنقلوا منها من الشمال جنوبا وحيث أننا نجهل الزمن الذى انفصل فيه المحس من الشمال جنوبا بالتحديد لعدم توفر ذلك فى المراجع التاريخية الموجودة لدينا حتى الآن عن من هم ومتى كان ذلك

الا أننى إعتمدت فى بحثى هذا بداية القرن الثالث عشر وهو زمن التحرك الى وسط السودان علماً أنه ليس زمن الإستقرار فيه حيث كان التحرك بسبب الجهاد وتجاوزت حركة المجموعة العربية بهذا السبب منطقة التقاء النيلين التى إستقروا فيها وحولها لاحقاً وذلك الى أقاصى النيل الأزرق قرب حدود الحبشة وأعتقد أن ذلك كان فى زمن محمد محس نفسه ودلالات ووقع الإستقرار التى نؤرخ لها فى هذه المنطقة (التقاء النيلين) تؤكد أن الإستقرار النهائي كان فى زمن حفيده عجم بن زائد وأبناؤه دون نستبعد وفد المقدمة الذي فصلت فيه في حديثي عن علاقة المحس "الخزرج" والجعليين وخاصة الفتيحاب ديموغرافياً وتاريخياً.

ولذا فان خطتى وبحثى بخصوص وقائع الإستقرار سوف تكون كالآتى:-

تعريفات هامة ومدلولاتها بالشرح أو بالأمثلة :-

١- المركز

منطقة المحس فى وسط السودان حول وقريبة من جزيرة توتي (شمبات والحلفايا وبرى والعيلفون الخ)

٢- مؤسسى جزيرة توتي :-

أول من وطئت أقدامهم جزيرة توتي هم من أهلنا المحس

المحطات :-

وهى اشارة لمجموعة محسية متجانسة ذكرت بشكل جماعى فى مكان وزمان محددين أو شخصية معروفة أو لهادور معروف فالمحطة تكون معرفة مكان المرقد الأخير أى قبره . ولأمثل لذلك سوف أذكر ثلاثة محطات واحدة بالخارج توصلت اليها فى معرض اتصالى بأهلها فى الجنوب المصرى وبالتحديد فى منطقة دراو حيث أخبرونى بأن جدهم الكبير ورأس نسبهم هو عامر بن عبد كريم بن يعقوب الأنصارى فقمت بارسال ورقة النسب الخاصة بأبناء عجم بن زايد اليهم فأقروها بعد مطابقتها بما عندهم وأفادونى بأن هؤلاء أهلنا الذين دخلوا السودان . هذه منطقة جديرة بالذكر وهى معروفة لبعض أهالى توتي وخاصة الذين قدموا منها مؤخرا ولو صحت هذه الفرضية فاننا يمكن أن نعرف أول الجدود فى أحفاد أبى بن كعب دخولا السودان .

واثنين من المحطات بالداخل ذكرهم مؤرخو المحس يحتمل أن تكون هناك ثالثة و رابعة ثم الى المركز .

وأما المحطة الأولى جبل ساسى (سيسب على رواية محس الشمال) وهى ماذكره جدنا الشيخ الصديق أحمد حضره فى كتابه العرب التاريخ والجذور الذى قدمه حفيده سعادة محمد محجوب حضره كما ورد سابقا .

المحطة الثانية بقعة تدعى قاموا أو قامى

ففرضيتها وردت مما سمعنا من كثيرين ممن زاروا منطقة المحس بالشمال السودانى المشهور أن أهل هذه المنطقة يعرفونها بأنها المنطقة التى هاجر منها المحس الذين هاجروا الى توتي بمنطقة الوسط السودانى ولاتزال بيوتهم موجودة كخرائب أو خرابات ولهم فى ذلك قصة يروونها عن الأباء والأجداد جديرة بالتدوين والتحقيق وقد زرتها ولنا دليل مشاهدة ومنطق أنها كذلك.

الفصل الرابع

معلومات هامة لتحديد مكان وزمن بداية ونهاية

المعلومة الأولى :-

تأسيس قرية الحلفايا فى القرن العاشر الهجرى:

وهى هامة فى هذا الباب وقد أوردها الشيخ الصديق أحمد حضرة فى كتابه العرب التاريخ والجذور وهى :- (ذكر الشيخ الصديق أحمد حضرة فى معرض كلامه عن أبناء الشيخ محمد مجلى الآتى ((نسب الشيخ محمد مجلى الشريفه أمه و البكرى من أبيه وسنذكرهم اجمالا على ما أتت به أنسابهم الموضحة والخبر المتواتر. فأقول و بالله التوفيق لما أتى الشيخ محمد مجلى ومعه أخوه الشيخ أحمد اليمانى من أرض اليمن من قرية يقال لها بندة بأرض اليمن وحضروا بضواحى مصر بقرية يقال لها زرنيخ بجهة اسنا ومعه أولاده وهم محمد المترجم والشيخ محمد الرويان و الشيخ محمد الفرقدى والشيخ محمد مجلى الى بلاد السودان فى القرن العاشر الهجرى وسكن الحلفايا واسست قريتها فى ذلك القرن وقبره الآن بها و فى عام ١٠٠١هجرية توجه الشيخ يعقوب بن الشيخ محمد مجلى الى ملك سنار عمارة (الملغب بدنقس) الأموى نسبا القريشى قبيلة وسيأتى نسبه ان شاء الله مع فروعه)) انتهى

المعلومة الثانية :- تاريخ ومكان ولادة الشيخ ادريس ود الأرباب:

وأهمية هذه المعلومة لا تكمن فى أن الشيخ ادريس ود الأرباب هو من شخصيات المحس الهامة دينيا وسياسيا وإجتماعيا فحسب بل ان الشيخ ادريس ود الأرباب بزمن و مكان ولادته واللذين حددا بصورة دقيقة قد شكل اضاءة هامة فى تقدير زمن تأسيس شمبات حيث ولد بقرب شمبات(ولم تقل المراجع بشمبات بل بلفظ بقرب شمبات) وهذا يوضح أن هذا الزمن الذى ولد فيه الشيخ ادريس لم تكن شمبات منطقة كبيرة وكأنها حوش أو مجموعة صغيرة من بيوت المحس اذ لم يكن من الأهمية أن يولد فى ذلك المكان أو بالقرب منه مما يوحى بأنه زمن بداية إستقرار لكثير من المحس بهذه المناطق بل كان زمن تحرك أيضا وأن ولادة الشيخ ادريس ود الأرباب بقرب شمبات يجعلنا نفترض أن الوجود بشمبات لا يزيد حصوله على ثلاثة أجيال او أربعة سابقة لذلك الخبر.

ومما يؤكد ذلك وجود الحمدلاب المحس الذين ذكرهم أكثر من مؤرخ وراوى لتاريخ المحس ومنهم الشيخ الصديق أحمد حضرة بمنطقة العيلفون في أو قبل سنة ١٣٠٠م ويكون ما أرمى اليه جلياً اذا علمت أن الحمدلاب المحس وجدهم حمد بن مشرف بن زايد بن عجم بن زايد بن محمد محس وزمنه بحساب الأزمان يكون فى بداية القرن الرابع عشر (حوالى ١٣٠٠م) أو أقل إلا أنها تبقى شمبات معروفة قبل ولادة الشيخ ادريس

وقبل ال ١٤٠٠م وأنه رغم ولادة الشيخ ادريس بقرب شمبات فى بقعة تدعى شوحطت رحل به أبوه (على أحد قولين والثانى أنه هو الذى رحل لتأسيس العيلفون). وأرجح أنه هو الذى رحل الى العيلفون لوجود ضريح والده بشمبات. مما يؤكد بأن هناك حركة من والى أمكنة وجودهم بالوسط للإستقرار وأغلبها كانت جنوبا ناحية شرق النيل الأزرق ولا يخلو من ذلك النيل الأبيض وأهمها تلك التى كانت الى جزيرة توتي والخرطوم وهى أهم مركز لمحس الشمال فى الوسط والمحطة الرئيسية للرحلات الأخرى جنوبًا على النيلين الأزرق والأبيض وغيرهما بعد ذلك.

المعلومة الثالثة:- شخصيات و مكان وزمان بداية الإستقرار

وهذا لا يعنى على الاطلاق أنه زمن وجودهم بهذه المنطقة. فبالضرورة أن الوجود سبق الإستقرار بجيلين أوثلاثة وهذا يعنى أنه كان قبل ٥٠ ال١٠٠ عام تقريباً أى فى زمن حفيد محمد محس عجم بن زايد الذى ربما جاهد مع والده وجده وتوزع أبناءه على طول النيل الأزرق والى بعض المناطق حوله كما يخبرنا واقع تواجد أولاد عجم التسعة فى جنوب النيل الأزرق و السافل مع الجعليين (شعبان بن عجم جد الشعباناب) وشرق النيل الازرق (سادر بن عجم جد السدارنة) وفى البطانة وفى الغرب السودانى وهذه ربما تعرضنا لها فى موقع آخر.

وزمن هذا التحرك من شمبات وربما الصبابي الى توتي

والخرطوم ومتوسط ما افترضناه هو بداية القرن التاسع أى ٨٠٠ هجرية وهو ويؤكد فرضي الذى أرغب فى تحقيقه وخاصة أن المؤرخ ماك مايكل ذكر بأن أول وجود حضرى فى هذه المنطقة كان بجزيرة توتي والصبابى فى حوالى عام ١٤٨٠ للميلاد، وهو يؤيد ما ذهبت إليه لتحديد الشخصيات التي عاصرت الحدث.

الفصل الخامس

سيناريو تأسيس جزيرة توتي والشخصيات من واقع شجر النسب التى عاصرت تلك الفترة

أقول وبالله التوفيق بدايةً :-

١) على أبو عشبة بن عبد الخالق بن عبد الله وهو من سعد الله بن عجم (كما هو معروف لدينا بتوتي وقيل من زايد بن عجم و أظنه تصحيف من الكاتب التحقيق جاري). وبقى فى شمبات بل اننى أعتقد أنه مؤسس شمبات بعد أن إستقرت على وضعها النهائى والمعروفة به الى اليوم وذلك أنه حينما يود أى باحث الإطلاع على شجرة النسب الخاصة بشمبات أو بالسعدلاب فانه لابد له من ملاحظة أن العنوان الرئيسى لتلك الشجرة هو أولاد على أبو عشبة (وليس سعدالله أو أى من أحفاده الأخر) وهذا معروف وشجرة أهلنا السعدلاب موجودة لدينا بهذا العنوان مما يؤكد أن المؤسس لشمبات وبيت السعدلاب فى هذه المنطقة هو على أبو عشبة وهذا يتناسب مع زمن التأسيس مما يجعلنى أعول على هذا الفرض كثيرا والتنقيب عنه فى كتب التاريخ والوثائق التايخية لمساندته.

٢) ادريس بن سليمان بن عمر المكنابى وهو جد دليل بن عمر بن حمد المكنابى واخوانه وأخواته

٣) عون بن عامر بن صبح وهوجد أرباب العقائد وجد الحاج ادريس وآخرين

٤) علبك بن مقيود بن قردقة وهو جد أولاد موسى الضيق وأولاد الحاج العمرانى وغيرهم من القردقاب من شرف الدين بن عجم

٥) وأما عن تحرك أهلنا العبودية لم أدرس شخصياتهم لعدم وجود شجرتهم بين يديا وسوف أذكر واحدا فقط وهو جميل الله بن ضوالبيت بن دليل بن على بن عبودى بن عجم بن زايد الظن بأنه اتجه الى أمدرمان حيث تمركزت بيوتهم فى الضفة الغربية لنهر النيل قبالة جزيرة توتي وفى غياب الشجرة لا يمكننا من التدليل على هذا الظن، وعزائى فى غياب ذكرهم الآن ان هذا ليس هو البحث النهائى عن هذا الموضوع بل سنفرد له بحث خاص فى المستقبل ان شاء الله وهؤلاء المذكورين أمثلة فقط للاستئناس بها فى موضوع التأسيس وأناشد العبودية الذين تصلهم هذه المعلومة مدنا بالمعلومات المطلوبة وكذلك أبناء عجم الأخر وخاصة صارد و زايد ومزاد أبوشامة بحكم تواجدهم القريب حول المناطق القريبة من جزيرة توتي وهناك معلومات لا يستهان بها يمكن تحليلها والخروج منها بنتيجة من دراسة وتحليل شجر النسب.

تحركوا الى جزيرة توتي (هناك غيرهم الا أن هذا مثال وعدم وجود الشجر الكافى لاستقصاء اكبر عدد يجعلنى أكتفى بهذا الآن).

وتحرك أبناء على بن قرين بن قندل الى العيلفون الحالية وفهل

تحرك اليها حفيده محمد الأرباب أو الشيخ ادريس بن الأرباب بن محمد (على أحد قولين)

تحرك عبيد بن وازن بن مرزوق أو أولاده وهم من صلب شرف الدين بن عجم وعبيد هذا هو والد الحاج حمد أبو دنانة المحسي جد الحتيكاب وغيرهم وعبد الكبير بن وازن جد ابراهيم البدانى بن عبدالله و جد الفقيه قسومة بن على بن قسومة وغيرهم الى بر الخرطوم مقابل جزيرة توتي ابتداءاً من مكان حديقة الحيوانات سابقا ءالى منطقة الخرطوم شرق ثم بعدها الى الخرطوم شرق وانتهاءًا بمبنى كلية غوردون التذكارية أى مبنى جامعة الخرطوم القديم والتى عرفت بيرى ثم الى برى الحالية وهم وأبناء عمومتهم الكبانية والصواردة كانوا فى كل المنطقة شاركهم بالضفة الجنوبية للنيل الأزرق أهلنا الجموعية والدرايسة الى الغرب منهم وقد تم ترحيلهم الى برى الحالية معهم أخيراً.

تحرك أبناء شكرى بن سمرة بن عصفور الى جزيرة توتي فى الجزء الجنوبى الغربى المنطقة المعروفة ببيت قدوم وود قدوم وبمعيتهم فيها الجموعية والى بر الخرطوم مع أولاد عبيد بن وازن والنيل الأبيض وهم من صلب كبانى بن عجم وهو جد الشيخ خوجلي و جد الفقيه امام بن محمد كرم الله وكذلك تنطبق عليهم نفس نظرية وجود أولاد مرزوق معهم الا أن الغالبية منهم ومعهم جزء من السعدلاب وجزء من أبناء صارد بن عجم (الصوارده) كانوا بهذه المنطقة.

(و مما يدلل على ذلك أنى سمعت حكاية تروى عن جدنا الملك

حامد ود فتاحه وجدنا الشيخ خوجلي عن الملكية فى جزيرة أم شجر مما يدل بأن الكبانية والجموعية كانوا جارى الضفتين) أرجو أن أجد أصل الحكاية عند أهلى الجموعية لتأييدا ما ذكرت من مكان وجودهم و لا أدل من قبر امام بن محمد كرم الله الكباني (المشهور حديثا بأبى جنزير) وهو موجود الى الآن (وقد كان ضمن الذين نقلوا جثمانه من مكانه الأصلى فى منتصف شارع القصر الى منطقته الحالية الشيخ اسحاق بن الفكى ابراهيم وقد نقل عنه أنه وجد الجثمان كاملا ومخضبا بالحناء فأعيد تكفينه ودفن فى مكانه الحالى)

ان مكان قبر الفقيه امام بن محمد كرم الله بهذه المنطقة ومعهم ما ذكرت سالفا يدل على وجود محس توتي بتلك الجهة خاصة وأن منطقة برى الأصلية تبدأ قريباً من مشرع أرباب العقائد وتنتهى بهذه المنطقة.

والشاهد أن وجود جزء من محس توتي بهذه المنطقة كان قبل قدوم الشيخ أرباب العقائد اليها مما يجعلنا نؤكد بأن قدوم الشيخ أرباب العقائد فى ذلك الوقت الذى قرر فيه الرحول الى هذه المنطقة أو غربى هذه المنطقة بتلاميذه من توتي قد شكل بداية مرحلة تاريخية جديدة للمنطقة نفسها وهو تأسيسها من ناحية قومية حيث لم تكن معروفة ولا مذكورة قبل ذلك وقد وفد الناس للشيخ أرباب العقائد من مختلف المناطق والقبائل لتلقى العلوم الدينية فى أول معهد دينى بالمنطقة حيث كان يدرس فيه العلوم الفقهية بالإضافة الى حفظ وعلوم القرآن ليكون بذلك أول مؤسس لمدينة قومية يشد

اليها الرحال من جميع أنحاء البلاد عرفت بقرية أرباب العقائد بعد أن كانت بر المحس وخرطوم توتي آنذاك حيث لم يكن بهذه المنطقة قوميات أخرى غير المحس والجموعية والى الجنوب منها الى جهة الجزيرة الكوأهلة وبعض القبائل العربية الأخرى والأشراف وتعرف الآن بـ مدينة الخرطوم وهى العاصمة القومية للسودان .

((هذا وقد قدم الي هذه المنطقة المجموعتين الجموعية والمحس من اتجاهين مختلفين فى غالب الظن وذلك أنك اذا نظرت فى كتاب الجموعية للأستاذ ناصربابكر حفيد الملك ناصر ص ٦١ وجدت أن الملك ناصر ذكر بأن (سبب نزوح الجعليين الى بلاد السودان هو ما وقع من شجار بين بنى أمية وبنى هاشم فى الجزيرة العربية فنزحوا الى المغرب ثم دخلوا دنقلا وتغلبوا علي أهلها و كان ذلك فى سنة٦٧٢هجرية و تسربوا من دنقلا جنوبا ووصلوا بحر العرب ثم تراجعوا الى كردفان) انتهى كلام الملك ناصر والذى تؤيده بعض الروايات والوثائق التاريخية وذلك يعنى أن رحلة الجموعية (الجعليين) للوسط أصبحت من اتجاه الجنوب الى الشمال لبلوغ ملتقى النيلين بعد عدة محطات وقدم المحس (مؤسسى توتي وما حولها) من الشمال جنوبا الى الوسط بعد عدة محطات أيضا لبلوغ نفس الهدف وقد إختلفوا في زمن الوصول للمنطقة إلا أنهم تزامنوا فى الدخول الى المركز (جزيرة توتي) كل من اتجاه وطريق مختلف عن الآخر وهذا ما يبرر الوجود الغالب للمحس بشرق النيل والنيل الأزرق والوجود الغالب للجموعية غرب النيل والنيل الأبيض رغم تواجد الاثنين فى كلا الاتجاهين شرقا وغربا فيما بعد وعموما

هذا أيضا بحث آخر يمكن أن نستعين عليه بأهلنا الجموعية فى المستقبل القريب من حساب الأزمان ورصد الشخصيات المتعاصرة ان جاز التعبير و كان بالعمر بقية رغم أني فصلت فيه في ذكر العلاقة الديموغرافية والتاريخية بينهما .وأتمنى أن أقدم بحث للمحس والجموعية للعلاقات القوية جدا بينهما وبخاصة فى هذه المنطقة (فأنا مثلا جدي عن طريق والدتى نفيسه خوجلي حامد هو الملك حامد بن فتاحه (ذكره لى جدي محمد ابراهيم النور حامد قاضي قضاة السودان الأسبق رحمه الله) وجدي من ناحية أبى الفضل والدته ونستى بت عيسى بن رملى بن على حفيد الشيخ العودى بن محمد صغيرون الجعلى الحاكمابى وهذا كثير بجزيرة توتي ولا أحسب أن هناك عائلة بجزيرة توتي ليس لها مثل هذه الصلة فكثير من الجموعية لهم جدات من محس توتي وكثير من محس توتي لهم جدات جموعيات.

ومن هنا نستنتج ما يلى :-

يعنى بحساب الأزمان يمكن أن تكون نهاية من أواسط القرن الثامن الهجرى على أقدم الفروض أو بداية القرن التاسع وهو أوسط الفروض ولنبدأ به.

ملحوظة هامة وهذه الرحلة الثانية التى تشكلت فيها ديموغرافية المنطقة وهى غير الرحلة الأولى التى كانت ضمن المجموعات العربية المجاهدة لانهاء الحكم المسيحى لدولة علوة وما تركت من آثار وغير وفد المقدمة المحتمل من مشاهدات العالم الجغرافي أحمد بحوقل النصيبي.

الفصل السادس

بالرغم من أن الخرطوم هي أحد أكبر الآثار الديموغرافية للمحس المسلمين الذين إستوطنوا ملتقى النيلين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي وأثرهم الإجتماعي والثقافي ظاهر يتجلى فيها وحولها على نهر النيل والنيلين الأزرق والأبيض خلافاً لمن يقول بالديباجة المعتادة خطأً والتي تجعل قدوم المحس المسلمون في بداية القرن السادس عشر الميلادي تزامناً مع ميلاد دولة الفونج .

والحقيقة أن منطقة إلتقاء النيلين منطقة معروفة قبل العهدين الأخيرين المسيحي والإسلامي ولا أعجب إن كان قد سبقنا أهلنا (النوبة الحمر) المحس قبيل المسيحية أو بعدها بقليل ذلك أن وطن النوبة في السودان هو النيل وجباله التي يعانقها في كل إنحرافاته متوجهاً الى مصبه إما عواصم ممالكهم وإماراتهم أو مقر كبارهم والآثار والدفوف والمنازل القديمة تشهد بذلك وأن وطن النوبة في السودان القديم سودان ما قبل الميلاد هو نهر النيل من أسوان جنوباً الى ملتقى النيلين ثم الى سنار الحالية بالنيل الأزرق وجنوب جبل الأولياء بالنيل الأبيض ولن تستغرب إذ عرفت أنه إلى عهد زيارة بن حوقل في القرن الرابع الهجري الموافق القرن العاشر الميلادي عندما تحدث عن مشاهدته لسكان النيل الأبيض قال إنهم من النوبة.

والحقيقة الثانية أن أرباب العقائد هو من إرتبط إسمه بمدينة الخرطوم في العصر الإسلامي في السودان فكانت بر المحس ثم

قرية أرباب العقائد ثم خرطوم توتي ثم مدينة الخرطوم عاصمة السودان القومية لم يكن أرباب العقائد المؤسس بمعنى المبتديء فقد سبقتنا حقب تأريخية قديمة أما تأسيسه للخرطوم فقد كان في الحقبة الإسلامية في السودان وكان قد بدأ الزراعة في بر الخرطوم أبناء عمومته أولاد مرزوق بن فلاح في حوالي (١٤٢٠م)إلا أنهم لم يستقروا خوفاً من الحيوانات المفترسة التي ترد النيل من الغابة فكانوا يقضون ليلهم بشاطيء جزيرة توتي بدلاً من الخرطوم(١). إلى حين قرر أرباب العقائد الإستقرار في بر المحس .قبل عام١٦٩١م

وتأكيداً لمعاني سامية قصدها البروفسرعلي عثمان محمد صالح وهي قراءة التأريخ من خلال الآثار التي بشر بها آركل في الخرطوم بمستشفاه القديم ومقرن النيلين وخور أبوعنجة وجبل الأولياء وغيرها، تضمنها مقاله الضافي عن ملامح من تأريخ الخرطوم أحببت أن أستضيف هذا المقال في كتابي إمارة ومملكة المحس الإسلامية وليعرف المهتمين بتدوين التأريخ وبخاصة التأريخ المحسي أن أمة النوبة والمحس منهم على وجه الخصوص أمة ملوكية وقد أسهمت إسهاماً مقدراً في بناء الحضارة السودانية عبر العصور المختلفة قبل الميلاد وفي عهد المسيحية وأخيراً في العهد الإسلامي والمخطوطات والشواهد والآثار سوف توصلنا الى نفس النتيجة في المستقبل القريب حسب ما بشر به البروفسر علي في مقاله .

هناك سناريو تأريخي حدث في مدينة سوبا زمن سقوطها بواسطة المجموعات العربية الإسلامية له مدلولاته التي تعكس بعض القرائن

لصحة ما ذهب إليه البروفسر علي عثمان محمد صالح من أن الوجود المؤسس لدولة علوة المسيحية هو للنوبة (الحمر) أقصد المحس وهو أن الشيخ الصديق أحمد حضرة ذكر بأن المجموعات العربية واصلت الإندفاع حتى حدود الحبشة وذكر البروفسر وليام واي آدمز أن بقية مسيحيي سوبا لجأوا الى حصن في قري. ومن تحليل هذا المنظر لإلتجاء جزءان هامان من مكونات مجتمع مدينة سوبا قد يكون ممكناً أن الجزء الذي توجه جنوباً هم من الأحباش المستوطنون في سوبا لأن لجؤهم كان للحبشة، والجزء الذي توجه الى الشمال من الأقباط المصريين المستوطنون في سوبا تمهيداً للَجؤ الى الشمال السوداني ومن ثم إلى مصر . هذا بالإضافة إلى أن هناك وجود محسي مسلم بكثرة ملحوظة ومرصودة قبل قيام دولة الفونج بأكثر من ٢٠٠ عاماً (متمثل في وجود حمد بن مشيرف بن زايد بن عجم بن زايد الذي سميت منطقته بالحمدلاب(مجاورة للعيلفون) نسبةً له. وغيرهم كثير(في منطقة سوبا وعموم شرق النيل الأزرق مما يشكل دلالة وقرينة كبرى بأن الذين بقوا في سوبا من المسيحيين هم المستوطنون الأصليون من النوبة (الحمر) المحس . وهذا يفسر لماذا لجأ المحس المسلمون إلى تلك المنطقة وكيف إستطاعوا أن يتمددوا فيها في ذلك الزمان قبل سقوط سوبا وقيام دولة الفونج بزمن مقدر إن لم يكن السبب أنهم منهم أقصد من جنسهم النوبي المحسي ولذا تمت إستضافتهم بل تم الإنصهار مع من تبقى منهم بعد ترحيل الكثيرين - فيما بعد - بواسطة دولة الفونج الى سنار و جنوب النيل الأزرق وقد صرح الشيخ إدريس بن محمد الأرباب

بتصريح له أهميته وهو شاهد عيان على أصحاب الأرض الأصليين رداً على الملك بادي بن رباط ملك سنار عندما أراد الأخير منحه نصف أرض العسل الى البصل بقوله الموثق ((هذه الدار دار النوبة وإنتم غصبتوها منهم أنا ما بقبلها))

ومن هذا المنطلق ربما تكون هذه القرينة مؤيدة لإحدى الحقائق التي تلمسها البروفسر علي وما سوف تظهره الدراسات الآثارية المذكورة التي بشر بها البروفسر بإذن الله في مقاله ملامح من تأريخ الخرطوم[1]

حيث قال فيه :- (الخرطوم إسم مشتق من كلمتين نوبيتين وتعني ((نيل المقرن))، والكلمتان النوبيتان اللتان إشتق منهما الإسم هما:- كلمة (كُورِتي koratti) وهي إسم المفعول من الإسم (كوري kori) وهي تعني قرن شيئين أو جسمين من جنسٍ واحد مع بعضهما بعضاً كأنك تخيط الشيء، وفي حالتنا هذه الشيئان هما: النيل الازرق والأبيض، ومقرنهما هو كورِتي- ن - أمن بمعنى مقرن النيل أونيل المقرن .

التصريف الذي تم في " كورتي - ن - أمَن " كالآتي :- تحولت الياء الأخيرة في كورتي الى واو وتم حزف الحرف المتحرك في الكلمة الثانية أمَن (ألف) وتحولت النون الأخيرة الى ميم وأدغمت في ميم أمن فصارت الكلمة كارتوم، و عربت فصارت خرطوم الجزر للكلمة

(١) حدثني بذلك الخال محمد أحمد جميل الله النسابة وراوية التأريخ المشهور والمعروف ب ودشاهين

كور جزر غني بنيت عليه كلمات نوبية عدة منها كور kur وكار kar إلتقاء عظمة الفخذين وكورتي تعني الركبة وكوور تعني لملمة الأشياء أو الجمع وهكذا .

ولا شك أن مقرن النيلين علمٌ جغرافي نادر ومميز، بمن سكن في الخرطوم أن يتسمى به وقد تغنى بمقرن النيلين سيد خليفة من كلمات شاعرنا المجيد صلاح عبد الصبور ، الذي عدد عجائب بعض سكان الأرض القدماء وأفرد المقرن بقوله : -

"فلا هذي ولا تلك ولا الدنيا بما فيها ××× تساوي مقرن النيلين في الخرطوم يا سمرا "

وجود النوبيين الشماليين (المحس) في منطقة اتلخرطوم مشهور تأريخياً منذ حوالي القرن السادس الميلادي ، حيث أن معظم النقوش المعروفة وبالأخص نقش عيزانا الملك أكسوم يذكر أن صراعاً كبيراً كان يدور في هذه المنطقة بين the black Nubian and the Read Nubian (النوبة السود والنوبة الحمر). النوبيون الحمر هم المحس والنوبيون السود هم الدناقلة ، والأمر كما يبدو أن النوبيون الحمر قد هجموا على مملكة مروي والتي كان سكانها في أغلبه من الدناقلة ، وقد تم الآن تقديم دراسات جديدة آثارية ولغوية تبرهن هذا القول

(١) مقال (ملامح من تأريخ الخرطوم) تم نشره في - مجلة الإستراتيجي تصدر عن المجلس الأعلى للتخطيط الإستراتيجي - ولاية الخرطوم - العدد الرابع نوفمبر ٢٠١٢

الذي نقول وسوف نتطرق الى هذا الأمر لاحقاً في هذا المقال .

أما أمدرمان فهي تعني ((أم على النيل أو أم فوق النيل)) وهي مشتقة من ثلاثة كلمات نوبية عُرِبت واحدة منها فقط وبقيت الكلمتان الأخريان على حالتيهما النوبية مصرفة أُمَن بمعنى نيل ودورو Dorow بمعنى علا أو فوق . وإين (Aian) بمعنى أم أو بمعنى كبير ، فأمدرمان تعني (المكان الذي على النيل الأم) حيث ترجمت كلمة إين النوبية إلى أم ، وبقيت الكلمتان (دورو وأمَن) لتصبحا في الأصل إسم " أمدرمان " وفي المنطقة النوبية الحالية أي ملتقى فرعين من النيل مسبباً بالجذر الكبيرة أو الصغيرة يسمى أمنَين .

وأسماء المدن والمناطق النوبية في الخرطوم الكبرى (ولاية الخرطوم) كثيرة منها على سبيل المثال : توتي ، بري ، الباقير ، سوبا ، علوة ، تكالي ، كدرو ، سبلوقة ، كرري ... وغيرها .

ولفائدة القاريء يجب أن تقال كلمة بسيطة عن تصريف الكلمات النوبية عندما تلتقي مع كلمات عربية ، القاعدة الأولى في هذا أن معظم حروف البهجاء العربية حروف ثابتة وأن معظم حروف الهجاء النوبية حروف متحركة وفي معظم حالات التصريف تختفي حروف الكلمة النوبية المتحركة أو يحصل لها إبدال بحرف عربي ثابت . وهناك قاعدة أخرى وهي أن عدد من االلحروف النوبية الثابتة مثل النون والميم تدغم في بعضها ، كما أن هناك حروف نوبية تتبادل فيها الحروف المواقع مثل : فاب في المحسية وباب في الدنقلاوية بمعنى والد أو أب .

<u>هناك كثير من الدلائل التأريخية على أن علاقات تجارية واسعة نشأت ما بين علوة وعاصمتها سوبا في إقليم الخرطوم .</u>

وقد ظهر الإستيطان البشري حول مقرن النيلين منذ العصر الحجري القديم حيث إكتشف العالم الآثاري آركلدليل ذلك الإستيطان في خور أبوعنجة في منتصف القرن العشرين ، ومع أن تقصيراً كبيراً حدث ما بعد آركل في دراسة آثار مقرن النيلين - أي منطقة الخرطوم الكبرى (ولاية الخرطوم) ، إلا أن كثيراً من أدوات العصر الحجري القديم تم جمعها من المنطقة في أجزائها المختلفة خاصة غرب النيل وغرب النيل الأبيض ، يكفي تماماً أن تؤخذ كدلالة واضحة للإستيطان البشري في ذلك العهد .

وكذلك أجرى آركل حفريات في الخرطوم الحالية عند بناء مستشفى الخرطوم القديم وعثر على مواد آثارية كثيرة ومتنوعة مصنوعة من الحجر والطين والعظام تدل دلالة واضحة على وجود مستوطنة كبيرة من العصر الحجري الوسيط ، وقد سماها آركل حضارة الخلرطوم وهي كذلك لأن فخارها فخار متميز من أقدم صناعات الفخار في العاالم وعلى الفخار نقشٌ مموج خطاً في بعض الأحيان ونقاطاً في أحيان أخرىوقد تم العثور على هذا النوع من الفخار وزخرفته في معظم المواقع الآثارية الكبرى في شمال وشمال غرب أفريقيا . وعلى النيل شمالاً حتى الحدود المصرية .

وكذلك أجري آركل حفريات آثارية في منطقة الشاهيناب

ووجد موقعاً متميزاً من العصر الحجري الحديث ، وتم دعم وجود إستيطان من العصر الحجري الحديث بإجراء مسوحات وحفريات جديدة في كل من الكدرو والجيلي والسقاي والصالحة غرب النيل جنوب أمدرمان .

كل هذه المواقع من العصر الحجري الحديث وهي مواقع كبيرة وتدل دلالة واضحة على إستيطاناً مقدراً كان في هذه الولاية في الفترة من ١٠،٠٠٠ ق.م وحتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد . ويقول بعض علماء الآثار إن أمثال هذه المواقع شحت في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد وطرحوا رأياً يقول إن ظروف ما في أغلبها ظروف بيئية إقتصادية أدت الى هجرة البشر من الخرطوم الى ضواحيها الجنوبية أو الغربية إلا أن المهم هو أن حضارة الخرطوم في العصر الحجري الحديث والتي أسماها آركل بحضارة الشاهيناب لها دور مميز في تأثير ظهور الإستيطان ، بل والمجتمعات الكبرى المركبة عل الضفتين الشرقية والغربيةشمال الخرطوم ، فالمتتبع للأمر يرى أن الشاهيناب ومواقع العصر الحجرى الحديث في مدينة الخرطوم أقدم من مواقع في جنوب ولاية نهر النيل - أو في البطانة . أو في الضفة الغربية للنيل شمال السبلوقة . وإن كان قد حدث نزوحاً في مدينة الخرطوم فإن ذلك في أغلبه إلى الشمال ، حيث قامت ثقافات نسميها ثقافة الكدرو أو ثقافات العصر الحجري الحديث في مروي القديمة وما حولها أو ثقافة قلعة شنان في شندي .

هذا يعني أن سكان الخرطوم الأوائل لعبو دوراً حضارياً كبيراً لم يذكر لهم من قبل ذلك . إن كاتب هذا المقال معتمداً على حفرياته ودراساته المطولة لحضارة مروي . يعتبر أن أصول هذه الحضارة هي ثقافات العصر الحجري الوسيط في الخرطوم وشمالاً حتى موقع مدينة مروي القديمة الحالية فحضارة مروي حضارة أصيلة أفريقية نشأت كتطور طبيعي لمجموعة ثقافات العصر الحجري المتأخر قي شمال ولاية الخرطوم وجنوب ولاية نهر النيل على ضفتي النيل .

والفكر التأريخي الآثاري يقوم على أطروحتين كبيرتين هما : أن الإنسان الأول سكن منطقة الأخدود الأفريقيفي شرق أفريقيا ، وأنه تطور هناك تطوراً ثقافياً قبل أن يبدأ النزوح إلى الشمال حتى وصل مرتفعات الحبشة ومنطقة المستنقعات الكبيرة والصغيرة التي تكون منها النيلان الأبيض والأزرق ونهر النيل من قبل خمسين ألف عام تقريباً جاعلاً المنطقة كلها صالحة للإستيطان البشري والتطور الثقافي

الأطروحة الثانية : هي أنه بذوبان كتل الجليد وبذوبان كتل الجليد التي كانت تغطي شمال إفريقيا في حوالي خمسةألف سنة قبل الميلادوبداية ظهور ما نسميه الآن بالصحراء الكبرىنزحت المجموعات البشرية التي كانت تسكن هذه المنطقة هروباً من الجفاف إلى مجاري الأنهار وكان لنهر النيل والنهرين الأزرق والأبيض حظاً كبيراً من هذه المجموعات القبلية النازحة .

الأطروحة الأولى تغطي ملايين من السنوات والأطروحة الثانية السنوات العشر آلاف الأخيرة قبل الميلاد والأطروحتان تشيران الى أن منطقة مقرن النيلين كانت منطقة جاذبة للإستيطان البشري. أما الأطروحة الثانية فقد وجدت حظاً مقدراً من الدراسة وفي تأثيراتها على سكان النيل خاصة في الشمال واتصل ذلك مباشرة بإنتشارالعناصر النوبية على النيل وظهور اللُغات النوبية حيث هي الآن .

أما الأطروحة الأولى فهي ما زالت تحتاج الى دراسات كثيرة وقد منعت قيام مثل هذه الدراسات الحروب الطويلة التي شغلت أهل السودان في جنوبه العزيز ، إلا أن قسم الآثار جامعة الخرطوم بدأ يفكر الآن جدياً في مواصلة ما تم من أبحاث قليلة في الجنوب وطرح الدكتور أحمد حسين عبد الرحمن مشروعاً آثارياً ثقافياً مشتركاً نتمنى أن تؤتى ثماره قريباً إن شاء الله .

نشأت مروي القديمة كإمارة في المنطقة الجغرافية المميزة ما بين جبل أم علي وديم القراي في ولاية نهر النيل في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد. والمنطقة المذكورة مميزة لأنها محمية حماية طبيعية بسلسلة الجبال التي تكوِن ما يشبه حدوة الحصان في شرقها، كما أن المنطقة غنية بالأراضي الزراعية بالضفتين الشرقية والغربية للنيل، والدليل الآثاري الأساسي هو وجود عدد كبير من مواقع العصر الحجري المتأخر في هذه المنطقة حتى أن مدينة مروي القديمة يبدو أنها مبنية على إحدى قلاع هذا العصر.

إن كثافة مواقع العصر الحجري المتأخر غرب النيل في هذه المنطقة وإمتداداتها غرباً الى منطقة جبال الأرضةوما غربها حتى طريق شريان الشمال يدل دلالة واضحة على حركة سكانمن غرب كردفان وشمالها إلى النيل حيث تم التعرف على بعض المواقع التي تنتمي الى حضارة كرمة في شمال كردفان ، فإنه من المحتمل أن الهجمة المصرية على مملكة كرمة في حوالي ١٥٠٠ق م ، أدت الى نزوح بعض أفراد الأسر الحاكمة إلى شمال كردفان ثم إلى النيل في منطقة مروي القديمة الحالية تحمل معها فكرة تنظيم الدولة وكونت مع سكانها الإمارة الأولى التي تطورت لتصبح مملكة مروي فيما بعد . وجدير بالذكر أن أقدم تأريخ تم توثيقه حتى الآن بالكربون المشع لمدينة مروي هو ١٢٠٠ ق م .

تؤيد الدراسات الحديثة في اللَغة المروية والتي يقوم بها العالم الفرنسي كلود ريلي والدكتور ناصر ساتي قسم اللُغويات جامعة الخرطوم بالدليل العلمي الأطروحة التي طرحها الدكتور إدريس البنا في رسالته لنيل درجة الدكتوراة في الصلة الوثيقة ما بين اللُغة المروية ولغة الدناقلة الحالية ، مما يدل على أن من بين سكان مملكة مروي مجموعة مقدرة من النوبيين الجنوبيين (الدناقلة) .

كانت ولاية الخرطوم من ضمن أقاليم مملكة مروي ، والمدينة المروية التي ورد إسمها في نقوش الملوك هي علوة ، إلا أنه ليس واضحاً إن كانت علوة إسم لإقليم أو مدينة ولكننا نعرف أن آثار مروية وجدت في مدينة سوبا . كما أن هناك مدينة مروية في جبل

أولياء تم إكتشافها عام ٢٠٠٢ م بواسطة الدكتورين هويدا محمد آدم وأزهري مصطفى صادق ، الأستاذين بقسم الآثار جامعة الخرطوم ، ولم تتم فيها حفريات بعد ، هذا يدل على أن النيلين الأبيض والأزرق كانا من صميم مملكة مروي ونشاطها التجاري والإقتصادي كذلك تم العثور على عدد كبير من الجبّانات المروية في منطقة السبلوقة وإمتدادها الى الشرق منها كما تم العثور على جبّانات مروية وما بعد المروية في منطقة السرورابمما يدل على أن منطقة الخرطوم كانت مأهولة بالسكان المرويين .

كما تم أخيراً إكتشاف عدد من الجبال الطالة على النيل ، كان المرويون يحرقون الحجارة منها لصناعة الجبص أو الجير والأسمنت الذي كان يستعمل بكميات كبيرة في المدن والمعابد المروية ، ويعتبر جبل الأولياء أحد هذه المناطق .

وإجمالاً نقول إن منطقة الخرطوم كانت تمثل إقليماً رئيسياً في مملكة مروي، إلا أن بحثنا الآثاري في هذا المجال في بداياته ، وهنلك أكثر من رسالة الآن تعد في قسم الآثار جامعة الخرطوم في تخصص الآثار المروية في ولاية الخرطوم ، ولا نستطيع أن ننشر نتائج هذه الرسائل قبل إجازتها ، إلا أننا نستطيع القول إن عدداً كبيراً من المدن النيلية ظهرت آثارها ما بين مروي والسبلوقة، وجنوباً من السبلوقة إلى جبل موية بالقرب من سنار ظهرت آثارها ، مما يدل على أن ولاية الخرطوم لعبة دوراً أساسياً في التجارة العابرة للحدود التي إزدهرت في الفترة الكلاسيكية لملكة مروي ما بين القرنين الثالث قبل الميلاد والثالث الميلادي ،

عندما أصبحت مروي إمبراطورية مترامية الأطراف .

سوف تظهر دلالات آثرية أخرى بهذه الصفة عندما تتم حفريات للمدينة المروية في جبل أولياء وهي على النيل ربما كانت ميناءاً لهذه التجارة ، وعندما يكتمل المسح الآثاري لمناطق أم دوم وود راوة والتي كانت ميناءاً رئيسياً لتجارة الجنوب في فترة مملكة علوة وكانت كذلك في الغالب الأعم في الفترة المروية .

ضعفت إمبراطورية مروي في القرن الثالث الميلادي لأسباب عديدة أهمها : - فقدانها للسيطرة الكاملة على التجارة العالمية العابرة للحدود شمالاً إلى مصر والبحر المتوسط ، وضعف إقتصاد منطقة البطانة لتغُرات مناخية ، مما أدى إلى تمرد بعض قبائلها . كما أن مملكة أكسوم التي نشأت في المرتفعات الإثيوبية بدأت تنافسها في التجارة إلى البحر الأحمر ومنه .

وعندما قويت شوكتها هجمت على مروي قبل أن يتبنى ملوكها المسيحية ديناً رسمياً - أي في نهاية القرن الثالث الميلادي - إلا أن الخطر الأكبر الذي واجه إمبراطورية مروي هو إستقواء النوبيين الشماليين - أي المحس - عليها بعد حروبات مروي مع الرومان الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك واتفاقها معهم سنة ٢٣ ق. م .

النوبيون الشماليون تملكوا الساقية خلال القرن الثاني قبل الميلاد وطوروا بذلك زراعتها التي كانت تعتمد على الشادوف والسلوكة ، والمعروف أن الساقية تستطيع أن تزرع ١٢ فداناً في الموسم الواحد

، كما أنها تستطيع أن تزرع أكثر من موسم في العام الواحد في شهور الفيضان فقط . كذلك إستقوى النوبيون الشماليون بإعادة تربيتهم للخيل وإستعمالها في الحرب وإجادت إستعمال القوس والسهم من على ظهرها حتى وصفوا مؤخراً عند إلتقائهم بالجيوش الإسلامية برماة الحدق .

وربما يكون قد إكتسبوا تربية الخيول من الرومان الذين كانوا يحكمون مصر أو من القبائل السودانية في الشمال وغرب كردفان ودارفور حيث يبدو أنهم إتصلوا بها عندما أنشأوا خطاً جديداً للتجارة عبر فرع وادي هور الذييصب عند بداية الشلال الثالث ، والذي ما زال شرياناً ضرورياً للحياة، حيث توجد به القعوب مثل :- قعب اللَقية وقعب النمل وقعب السواني وغيرها. وهذه هي التجارة التي نافست تجارة مروي .

النوبيون الشماليون نزحوا جنوباً واحتلوا المنطقة الوسطى من النيل وبعض أراضي مروي ، بل يقول عيزانا في نقشه المشهور إنهم وصلوا الى أقاليم نهر عطبرة ومناطق القاش وهجموا على القبائل التي سماها عيزانا أنها صديقة له. ونص نقش عيزانا يوضح جلياً أنه عندما قاد جيوشه الى جزيرة مروي عبر نهر عطبرة لم يكن عدوه مملكة مروي، بل كان عدوه الرئيس النوبيون الحمر كما يسميهم الذين دخلوا في حروبات شرسة مع النوبيين السود أي المرويين. ونقش عيزانا لا يتحدث عن إحتلال لإقليم مروي ولا يوجد أي أثر لدمار في المواقع المروية الرئيسية في البطانة، أو على النيل مثل النقعة والمصوراتومدينة مروي

نفسها، مما يدل أن تنافساً نشأ بين أكسوم والنوبيون الحمرعلى وراثة إمبراطورية مروي، ويبدو أن اليد العليا كانت للنوبيون الحمر الذين سيطروا أولاً على منطقة الخرطوم الحالية وجعلوا من علوة مركزاً لهم وسيطروا كذلك ثانياً على جزيرة مروي على النيل جنوباً حتى منطقة الهضبة الصخرية العريضة الممتدة مابين المحمية وجبل أم علي، وأقاموا فيها المملكة التي ورد إسمها بالأبواب عند المؤرخين العرب المتأخرين .

ويبدو أن الأسرة الحاكمة المروية نزحت الى غرب النيل وحكمت في شمال كردفان ، وربما غربها وصارت مراكزهم على النيلفي مدينة الهوبجي جنوب المتمة والزومة جنوب البركل، وثم من هناك - أي كردفان - نزلوا الى النيل بمنطقة دنقلا الحالية ، حيث يظهرون مرة أخرى في شكل مملكة المقرة المسيحية .

أما النوبيون الشماليون - أي المحس - صارت لهم مملكة في الخرطوم هي مملكة علوة المسيحية والتي إتحدت معها مملكة الأبواب ومملكة في الشمال هي مملكة نوباتيا حيث بدأوا منها غزوهم لمروي .

إذاً صارت الخرطوم مقراً لملكة مستقلة ممتدة الأقاليم ضمت منطقة الأبواب في الشمال والتي إمتدت بدورها حتى شمال الشلال الخامس وضمت كذلك أراضي نهر عطبرة ونهر القاش والجزيرة المروية وقامت فيها المدن التجارية وتدينت بالمسيحية الملكانية ، كما فعلت ذلك مملكة نوباتيا في الشمال وانفتحت على

العالم الأرحب عن طريق القسطنطينية وصلتها الكنسية بها .

تأريخ مملكة علوة كتبه الكتاب العرب وأهمهم اليعقوبي وبن حوقل وبن سليم الأسواني وهي كتابات غنية مليئة بالحقائق والوصف الجغرافي لأقاليم علوة إلا أن تحقيق هذه الكتابات عن طريق العمل الآثاري العلمي مازال متأخراً جداًوشعوب علوة كانت تضم بجانب المحس قبائل محلية يعددها بن حوقل كما أن علوة إتصلت بالجزيرة العربية عن طريق أنشطتها المتصلة مع مملكة أكسوم المسيحية وعبر البحر الأحمر والجزيرة العربية .

وهناك كثير من الدلائل التأريخية على أن علاقات تجارية مابين علوة وعاصمتها سوبا في إقليم الخرطوم والجزيرة العربية ، وكانت علوة تعرف عند العرب ببلاد الحبشة جرياً على الإسم الذي أطلقته الكنيسة القبطية على مملكة علوة كما هو معروف من كل كتابات الرسل والقساوسة الأقباط الذين تركوا كتابات تأريخية ووصفية عن مملكة علوة . وإلى الحبشة - علوة - أرسل الرسول صلوات الله عليه وسلم الهجرة الأولى والتي جعلت من ىأرض السودان أرض إتفاق ومعاهدة منذ بداية الدعوة الإسلامية وقد عرَّف كل من الأستاذان الشيخان الجليلان عبد الله الطيب وحسن الفاتح غريب الله لهذه الهجرة الميمونة كما فعل ذات الشيء أستاذنا النطاس عبد العال عبد الله من بعدهم وللأسف تأريخ هذه الهجرة لم يكتب بعد بالتفصيل المطلوب مع كل المعرفة الجديدة التي وصلتنا عن تداخل قبائل قريش مع

الحبشة - علوة - ومع الدراسات اللُغوية والتأريخية الحديثة التي توضح أن النجاشي لغب نوبي معهود بمعنى (كبير القوم) ،وكلمة قاش النوبية التي تعني يتبختر (أو يتكوبر بلغة أهل السودان) هو جذر صفة نجاشي التي في الأصل هي إن قاشي : إن بمعنى هذا وقاش بمعنى الكبير وإسم الفاعل من قاش هو قاشيل التي ذكرها الكتاب العرب محرفةً كابيل لغباً لملوك علوة .

إذاً ، فتأريخ الخرطوم هو تأريخ الهوية السودانية فهي كانت مصدر الإشعاع الحضاري لبداية مروي كما ذكرنا ، ثم صارت مصدراً للإشعاع المسيحي والإسلامي في زمانين لا يفرق بينهما حتى مائة عام ووجود آثار ما قبل التأريخ والآثار المروية والآثار المسيحية والإسلام الذي هو عالمها الآن يوضحوا ما قصدته أن الخرطوم هي عاصمة الهوية السودانية .

إستمرت مملكة علوة قوية زاهية كما يصفها بن سليم الأسواني حتى ضعفت أمام الضغط الإسلامي العربي في نهاية القرن السادس عشر الميلادي حين سقطت مدينة سوبا ونشأت على إثرها مملكة الفونج ولكن الخرطوم إستمرت مركزاً حضارياً في زمان دولة الفونج كذلك حيث أنها إحتضنت أهم المراكز الدينية في العيلفون وفي توتي وفي المقرن وفي قري كما إحتضنت العاصمة الإدارية الثانية عاصمة العبدلاب في قري وخلال حكم دولة الفونج أخذت الخرطوم واقعها الحالي .

فالمشهود، أن القبائل العربية الكبرى التي ساكنت المحس في

نهاية الفترة المسيحية وبداية دولة الفونج هي ذات القبائل الحالية البطاحين وفروعها الجموعية وفروعها وقبائل الأشراف ثم جاءت عليها مجموعات المغاربة والمجموعات ذات الأصول المصرية والتي وصلت عقب التركية الأولى - أي الفترة العثمانية في شمال السودان ١٥٦٥ - ١٨٢٠ م ومع المهدية جاءت قبائل غرب السودان الذين يشكلون جزءاً مقدراً من سكان الخرطوم .

الجدير بالذكر أن الخرطوم أسهمت مساهمة فاعلة في إنتشار الطرق الصوفية في كل أنحاء السودان وخاصة في الجزيرة المروية في الشمال حتى حدود منطقة المحس الشمالية حيث تنتشر قباب الشيوخ رموز التأريخ الصوفي في السودان .

الفصل السابع

تأسيس مدينة الخرطوم وأثر المحس فى انشائها وتخطيطها الأول

(١٨٣٠ - ١٨٣٨م)

في العصر الإسلامي

لقد لعب المحس دوراً هاماً فى انشاء مدينة الخرطوم وجعلها مدينة قومية يشد لها الرحال وعاصمة ثقافية للسودان وذلك عندما قدم اليها الشيخ أرباب العقائد القادم من جزيرة توتي ليستقر مع بنى عمومته أولاد عبيد بن وازن حفيد مرزوق بن فلاح أحد أولاد فلاح والمشهورون بالذكر فى الوثائق التاريخية بأولاد فلاح الأربعة أو دون ذكر الأربعة ولم تكن الخرطوم معروفة آنذاك بقدر يزيد عن معرفة المجتمعات والقبائل بأنها خرطوم توتي بل كانتا شيئاً واحداً يفصلهم النيل الأزرق .

بعد رحيل أرباب العقائد اليها وانشاؤه المسجد الجامع الذى سمية باسمه ولا زال باسمه بعد اعادة بناءه وحتى الآن وخلاوى تدريس الفقه وتحفيظ القرآن بدأ التلاميذ يتدفقون اليه من كل صوب وذكرت بعض المراجع التاريخية والروايات أن طلبته كانوا يزيدون عن الألف طالب فأصبحت الخرطوم والتى كانت تسمى فى ذلك

الوقت خرطوم توتي وأظن الإضافة للتعريف حيث أن جزيرة توتي كانت معروفة آنذاك ولربما كانت هناك مدن أو قرى تسمت باسم الخرطوم فذاك يميزها عن غيرها أو لأن غالبية سكانها فى ذلك الوقت من جزيرة توتي.

سمح هذا المد الإجتماعى الثقافى بمد آخر للتجارة والإقتصاد وللبناء والتعمير مما لفت أنظار الأتراك اليها والى جزيرة توتي مما جعلهم يفكرون بل ينفذون انشاء مدينة فى هذا الموقع تخطط لتصير العاصمة السياسية لحكم البلاد.

وقبل أن أتطرق الى شكل الخرطوم الديموغرافى أود أن أثبت حقيقة لشاهد عيان نقلها لنا د. أحمد أحمد سيد أحمد استهلالاً للفصل الثالث قال ((عندما وصل عثمان بك فى منتصف سبتمبر ١٨٢٤م لم يكن من آثار الحكومة الجديدة الا المعسكر وسوق القش . أنتهى)) .

ذلك أن الخرطوم كانت فى الواقع عبارة عن سواقى المحس وهى ترقد مستطيلة مع استطالة الضفة الجنوبية للنيل الأزرق وذلك قبالة جزيرة توتي من الشرق وحتى مشرع جزيرة توتي الذى سمية بمشرع أرباب العقائد ثم الغرب منه من كان المتحف اليوم بالتقريب ثم الى أقصى نقطة فى الغرب كان يستقر الجعليين الفتيحاب ولهم صلاة قربى مع المحس عمقها عمق وجود القبيلتين بهذه المنطقة.

ثم أعود لأذكر ماذا وجد خورشيد بك والذى خلف عثمان بك بعد الشهور الثمانية للدفتردار على السودان؟ وماذا استحدث!؟ وما هى ايجابيات وسلبيات الظروف الإقتصادية والسياسية فى ذلك الزمان؟

ماذا وجد خورشيد بك قبل البدء فى عملية التنظيم والتخطيط فى سنواته الثمانية فى السودان (١٨٢٦-١٨٣٨) و كان قد بدأ فعلياً فى عام ١٨٣٠م ولاستطالة سواقى المحس بضفة الأزرق الجنوبية جاءت الخريطة الأولى لمدينة الخرطوم مستطيلة الشكل. ولنبين ما وجد فى هذا المستطيل قبل اضافات خورشيد بك ليعلم كم كان للمحس ورصفائهم الجموعية من أدوار تحسب لهم على مر التاريخ فى تشكيل وانشاء عاصمة السودان القومية.

ولنبين ذلك بوضوح أرجو أن أقدم لها بما ذكره د. أحمد أحمد نفس المرجع ذلك أنه قال: ((ولما كانت المدينة قامت منذ أول أمرها - يعنى مدينة الخرطوم – طبقاً للخطة المستطيلة فاستطالت على طول الأزرق الى أقصى ما مكنتها ضفته- فقد ترتب على ذلك كله بأن أصبحت الطرق تقطع المدينة من الشمال الى الجنوب مبتدئة من ضفة النيل الأزرق حيث تقوم (المشارع) ومتجه بعد ذلك جنوباًالى داخل المدينة وقد عرفت المدينة تلك الطرق منذ تأسيسهاعلى يد خورشيد .)) انتهى.

أولاً:- هذه المنطقة المستطيلة التى ترقد على شاطىء النيل الأزرق الجنوبية هى فى الواقع كانت مقسمة الى ثلاثة أقسام من جهة الشرق الى الغرب أى بطولها على الضفة القسم الأول قبالة النيل وهذا للزراعة ولا يستطيع أحد عابر الدخول منه الى المناطق الجنوبية منه الا عن طريق مشرع وذلك حتى شارع الجامعة حاليا.

ثم تليه جنوبا المنطقة الأخرى أو القسم الثانى وهى حتى شارع

الجمهورية حاليا وهى منطقة سكن الأهالى وفى نهاية هذا القسم من جهة الجنوب وتحديداً شارع الجمهورية نفسه كانت تقوم الطواحين ومخازن الغلال وسكن العاملين، وتحضرنى فى ذلك رواية عن الخال الطاهر أحمد جميل الله وهو موجود الآن أطال الله فى عمره ذلك أن أخاه الذى يفوقه كثيراً فى العمر وهو أحد كبار النسابة ورواة التاريخ وبخاصة المحسي وهو محمد أحمد جميل الله المشهور بود شاهين وهوتقريباً من مواليد بداية القرن العشرين ووالده فى السبعينات أو ثمانينات القرن التاسع عشر كان يقود حماراً وعليه جده جميل الله (وفي قول آخر جده البدري) الذى تكون ولادته بعد احتلال الأتراك للسودان بفترة قصيرة – أن أخوه قال عندما وصلنا شارع الجمهورية الحالى بالضبط فى الصينية التى أمام جامع أرباب العقائد كبى الحمار مرتين فى حفر حديثة كانت فى هذا الشارع فقال لى جدي وقد كان ضريراً فى هذه السن ما هذه الحفر أليس جامع أرباب العقائد الى جانبنا الآن قلت نعم قال لى ان موقع طاحونتى هنا مكان هذه الحفر ومخازن تقاوينا الى جانبها أين ذهب ذلك كله فقلت له انهم يصلحون المكان لعمل شارع عام.) انتهى.

هذا يعنى أن شارع الجامعة هو الشارع الداخلي ضمن السواقى والذى كان يفصل بينها وبين السكن وشارع الجمهورية هو ما يفصل السكن عن الطواحين والمخازن للأهالى.

ثانياً : – كان هناك مشرعان فقط مشرع أرباب العقائد ومشرع برى ثم بعد أن الأتراك فى فتح الشوارع العرضية وتخطيط السوق وعمل

الترس من الناحية الغربية واستحداث الأحياء السكنية الجديدة مثل حى الدناقلة المعروف بالمراكبية وسلامة الباشا وحى الترس نفسه وازدادت الحركة من والى الخرطوم حيث كان الطريق الوحيد لدخولها من أمدرمان والجهات الغربية هو مشرع أرباب العقائد بدأت المشارع على طول الضفة الجنوبية للنيل الأزرق مثل مشرع التبيداب وهوشرق مشرع أرباب وهو للتبيداب وهم من أمهر صياغ الفضة والذهب فى ذلك الوقت وأحسبهم الى اليوم وكانو يسكنون فريق الترس ومحلاتهم بسوق الخرطوم.

ثم مشرع القاضي وهو الى الشرق من مشرع التبيداب وكانا يمثلان أقرب الطرق الى السوق والمسجد مما جعلهما الخيار الأفضل لأهالى جزيرة توتي بعد ذلك.

ثم قام مشرع موسى بك شرق سابقه ثم تلا ذلك مشرع الشونة ومشرع المديرية ومشرع المستشفى ثم كان فى أقصى الشرق مشرع المحس وهو مشرع أهالى برى وكان فعالاً قبل رحيلهم الأخير وقبل فتح امتداد الطرق الشرقية غربية أى قبيل عام ١٨٦٠م السنة التى دفن فيها الشيخ محمد المبارك بن محمد بن على بن دليل المكنابى فى مدافن برى بدلاً عن أبنجيلة ببحرى كعادتهم قبل رحولهم الأخير الى أقصى الشرق ليبدأ تاريخ دفن جديدوهو أول من دفنه أهلنا المحس بمقابر برى الموجودة الى الآن .

ثالثاً :- لعمل الترس فى الجزء الجنوبى من ضفة النيل الأبيض ومنع المياه أن تفيض من تلك الجهة أثر ايجابى لتوسيع رقعة السكن وأمان

أهل المنطقة وأغلبهم من الجعليين الجموعية الفتيحاب الا أنهم أيضا عانوا مثل ما عانى رصفاؤهم من المحس من الآثار السالبة من ترحيلهم الى المكان الجديد المستحدث وبناء المساكن الحكومية فى مكانهم القديم وأحسبه فى جزء من قاعة الصداقة والمتحف وخلفهما والى الشرق من المشتل حالياً وحتى الشارع المعروف الآن بشارع الغابة وتم ترحيل جزء منهم وهم الدرايسة الى برى مع المحس ثم أخذ وجود المحس والجعليين الجموعية فى التقلص شيئاً فشيئاً لتقوم عاصمة البلاد وتفد أعداد كبيرة من أطراف السودان المختلفة ورحول غالبية المحس اما الى جزيرة توتي أو برى المحس وباقى مناطقهم فى العاصمة المثلثة وما حولها .

رابعاً : - منطقة الإدارة المركزية اليوم و وهى آخر مناطق السكن للمحس وكانت فيها خلاوى طلبة أرباب العقائد وله خلوة الى الشمال الشرقى منها.

وأن الشارع الشمالى لهذه المنطقة والمعروف بشارع الجامعة كان يفصل بينها وبين مزارع المحس الى الغرب منها منطقة الجعليين الفتيحاب والشارع الغربى يفصل بين المنطقتين هو شارع مشرع أرباب العقائد وهو الشارع الغربى الأول والوحيد فى ذلك الزمان لدخول الخرطوم للقادمين من جهة أمدرمان والقادمين من جهة الغرب عابرين الى مناطق الجزيرة وشرق النيل الأزرق ومناطق السودان المختلفة .

الفصل الثامن

في تقريب فهم علاقة المحس والجعليين الفتيحاب تاريخياً وديموغرافياً بمنطقة إلتقاء النيلين

يقول الملك ناصر ملك الجموعية بأن سبب نزوح الجعليين الى بلاد السودان هو ما وقع من شجار بين بني أمية وبني هاشم في الجزيرة العربية فنزحوا الى المغرب ثم دخلوا دنقلا وتغلبوا على أهلها وكان ذلك في ٦٧٢ هجرية أي بعد سقوط بغداد في عام ٦٥٦ هجرية وتسربوا من دنقلا جنوباً ووصلوا بحر العرب ثم تراجعوا الى كردفان ويذكر بأن قبيلة الجعليين بجزيرة أرقو تسمى سرارة نسبة الى جدهم سرار الذي ولد أولاد ثلاث وهم سمرة ، سميرة ، ومسمار وتتفق رواية الملك محمد ناصر الى هذا الحد مع نبذة ووثيقة الفقيه محمد أبو دليك [١].

من رواية الملك ناصر تحدد زمن دخول الجعليين السودان وأنهم إنقسموا الى جزئين جزء بقي في الشمال السوداني شكل فيما بعد مملكة للجعليين وجزء تسرب الى بحر
الأبيض وأخذوا في التقدم شمالاً حتى وصلوا ملتقى النيلين من خلال النيل
العرب ثم لاحقاً الى كردفان ولم يشكل هذا الجزء مملكة في تلك

---

(١) الشاطر بوصيلي في كتاب معالم تاريخ السودان من القرن العاشر الى القرن الى القرن التاسع عشر

المنطقة التي وصلها لعدم إستقراره فيها ولكن من تتبع وضعهم الديموغرافي على الأرض يتوصل إلى أنهم إنحازوا فيما بعد الى النيل الأبيض وإستمروا في التقدم بغرب النيل الى السروراب وبحساب الإستقرار والرحول فإن هذا التقدم الى أن بلغوا منطقة السروراب يحسب بسنوات ليست بالقصيرة.

وأما بقيتهم في الشمال فقد أسسوا مملكة عرفت بمملكة الجعليين في حوالي ٧٥٠ هجرية وحدودها من حجر العسل شمال منطقة قري والى الدامر أو الى مقرن نهر عطبرة مع النيل شمال الدامر على أحد قولين. تجاورها مملكة الميرفاب ومملكة السعداب وممالك الشايقية من ناحية الشمال .

ونص الوثيقة المتعلق بأولاد سرار:

(ثم بعد ذلك أولاد سرار سمار وسمرة وسميرة الهاشمية مع أعمامهم كامل وأحمدوليمها من القوم أول ما نزلوا من الشرق إستقروا ليماني الكاسنجر وعمهم حاسن مع أهله نزلوا بأم غيرة بمعائم جديدة نحو بربر وقد إنتقلنا برور الغرب الى بحر الغزال إستغرقنا فيه أربعة خلفات ومنه إنتقلنا الى وادي مقدم من جبرة الى أم طوب وقد ورثنا فيه خلفتان وكلت الديار من مشاهي المساعي قد توجهوا هنا أولاد محمد أبو دليق عبد الله وعلي وصالح الى شرق هوات سلوى في سرور شهر رجب سنة ١٠٠٠ ينقضي ثلاثة أعوام ووسمهم على الإبل والبقر والغنم على اليمين نار فوق الأذن مطرق وشاهد) (١) إنتهى .

أما المحس فكانوا قد وصلوا الى منطقة إلتقاء النيلين من خلال شرق النيل مروراً بمنطقة شمبات أول مكان إستقروا فيه الى الصبابي الحالية في حوالي سنة ٤٠٠ هجرية جنوبي الحلفايا التي أسست فيما بعد بواسطة دولة الفونج والتي كان قد سكنها الشيخ محمد مجلي وأولاده في عام ١٠٠٠هجرية وقد كان تأسيس الحلفايا في هذا القرن نفسه كما ذكر المؤرخ الشيخ الصديق أحمد حضرة وتحدث أيضا عن وجود المحس بمنطقة الحمدلاب (حول العيلفون) شرق النيل الأزرق مع بيان أن إسم منطقة الحمدلاب كان نسبة الى مؤسس المنطقة حمد بن مشيرف بن زايد بن عجم بن زايد بن محمد محس(٢) وهو يعادل الجد السادس للشيخ إدريس بن محمد الأرباب مؤسس العيلفون بنفس المنطقة أي قبله بحوالي ٢٠٠ عام يعني حوالي ٧٠٠ هجرية. وحمد بن مشيرف المحسي الخزرجي لم يكن الأول وجوداً.

في منطقة إلتقاء النيلين وشرق النيل وذلك إستناداً الى ما ذكره الشيخ خوجلي في الإجتماع الجامع لشيوخ المحس بمحضر موثق ومكتوب على لسان الشيخ خوجلي في ذلك الإجتماع الجامع لشيوخ المحس "الخزرج" أن المؤسسين لمحس وسط السودان وبخاصة إلتقاء النيلين وشرق النيل هم أبناء عجم التسعة ، وأن عجم هذا هو جد حمد بن مشيرف بن زايد بن عجم بن زايد بن محمد محس مما يجعل أن أولاد عجم بهذه المنطقة على أقل تقدير قبل أكثر من ٢٠٠عام من

(١/) هذا جزء من الوثيقة عن مخطوطة محتفظ بها الشيخ يسن أحمد أبودليق بواد مدني.

(٢/) موسوعة الشيخ الصديق أحمد حضرة (حسن المسيارة والأرب في معرفة أنسلب وقبايل العرب)

ولادة حمد بن مشيرف بن زايد أي ٥٠٠ هجرية الى عجم بن زايد بن محمد محس وعادةً عندما تعرف منطقة بإسم أولاد فلان فإنهم ولدوا بهذه المنطقة والإحتمال أن جدهم الأول أو الثاني أو الثالث هو من إستوطن المنطقة فهذا يعني على أقل تقدير الى جد عجم الأول هو محمد محس في عام ٤٠٠ هجرية وربما لجد

الثاني أو الثالث وربما أكثر أو أقل أعني في أواسط أو أواخر القرن الرابع وليس كمن إعتقد أنهم أتوا متأخرين دون ذكر قرينة دالة على كلامه والله أعلم.

إن حقيقة الوجود الديموغرافي في السودان وفي منطقة إلتقاء النيلين شرق وغرب النيلين خاصة، فيها إضاءة تاريخية من عالم جغرافي شكلت مشاهداته للسودان وبخاصة هذه المنطقة مستند تاريخي بالغ الأهمية على ديموغرافية منطقة إلتقاء النيلين في زمان ومكان الزيارة وهو الرحالة العربي العالم الجغرافي أبو القاسم أحمد بحوقل النصيبي الذي زار منطقة لبجا والنوبة والنيل في أواسط القرن الرابع الهجري وذكر أنه قابل بمنطقة سوبا والسوبابي جماعة من المسلمين بقوله في كتابه صورة الأرض (سوبا لها ريا الضواحي وبه جماعة من المسلمين) وفي وصف آخر لإبن حوقل (فيها جنس من النوبة) وحيث أننا جماعة من المسلمين وجنس من النوبة فلا نستبعد أنه قابل مقدمة وفودنا لهذه المنطقة ونحسب أن هذا الوجود كان للمحس وبعض الأشراف وأفراد من القبائل المرتبطة بهما نسباً وهم عرب مسلمين ولكنهم جنس من النوبة من أمهاتهم وإن زمن هذه الزيارة قريب من زمن وجود محمد محس الذي إنتسب إليه كل أحفاد الملك

سعد والملك مكن وخصوصاً أن هذان الملكان تشهد الوثائق ومؤرخي المحس أنهما من أبناء الملك جامع مؤسس مملكة المحس الإسلامية، في الشمال بمنطقة سدلة غرب دلقو فعند زيارتنا لأرض مملكة الملك جامع الخزرجي المحسي لم نجد ذراريهم رغم وجود الأماكن الدالة على ميراثهم لملك أبيهم مع الأبناء الأربعة الأخر الذين لا زال ذراريهم بنفس المنطقة فلعلهما كانا أو أبناؤهما أو أحفادهما ومن معهما من الأشراف وبعض أفراد القبائل الأخرى الذين تربطهم معهم العلاقات النسبية وفد المقدمة لمنطقة الصبابي وشمبات وأنهما ومن معهما كانوا من شاهد بن حوقل في هذه المنطقة في القرن الرابع الهجري . هذا وقد كان قد تحرك إبن حوقل في رحلته هذه من مدينة السلام يوم الخميس الثامن من شهر رمضان المبارك سنة ٣٣١ هجرية ومهما يكن من أمر بداية رحلته فإن ذلك لا يتعدى أن يصل الى تلك المنطقة في السودان سنة ٣٤٠ الى ٣٨٠ هجرية تقريباً.

أما إستيطان المحس لجزيرة توتي فقد كان أن تهيب المحس دخولها وكانوا يزرعون شاطيئها الشرقي في زمن التحاريق (زمن نزول النيل الأزرق الى أقل نقطة بل جفافة تماماً في أغلب تلك المواسم) دون التوغل للداخل لوجود الغابات والحيوانات المفترسة بداخلها وهذا ما أخر دخولهم الى جزيرة توتي[1] وكان دخول الجعليين الفتيحاب الى جزيرة توتي من الناحية الجنوبية الغربية عند قدومهم للمنطقة عن طريق النيل الأبيض من كردفان وقد تزامن مع دخول المحس الى جزيرة توتي من الناحية الشمالية الشرقية ولا نعلم على وجه

---

(١) حيث ساقية القراريج وود قدوم وبت قدوم

التحديد من دخلها أولاً وهناك قولين أحدهما أن الجموعية كانت الأولى في الدخول [1] والآخر أن المحس هم من دخل أولاً .وأن ذلك كان في حوالي ٨٠٠هجرية حسب الرواية المحلية لبعض رواة المحس مثل عبد الرحمن أحمد جميل الله والصديق ود جولة [2]

وعندما تنظر للقاء الحميمي الذي تم بين المحس والجعليين الفتيحاب حيث يتضح ذلك من تداخل الأنساب المستفيض بينهما مما يجعل الوجود التاريخي لكليهما بالنسبة لجزيرة توتي غير زي موضوع فقلَ أن تجد بيتاً محسياً ليس فيه جدة من الفتيحاب وكثير من الفتيحاب لهم جدات محسيات من تلك الجزيرة .

ثم إن مواصفات الجزر لا تفي بأغراض قبيلة الجعليين الفتيحاب حيث حياة الخيل والفروسية تمنع من الإنطلاق ونقل الجياد دخولاً وخروجاً يعيقهم ويتسبب في أذى الخيول فلم يرغبوا العيش فيها بعكس المحس الذين لا تستهويهم إلا أراضي الجزر لأنهم يمارسون الزراعة ويمتهنون تدريس العلوم الدينية واللغة وتحفيظ القرآن. فظلوا هم الأغلبية فيها رغم أن كليهما من مؤسسيها.

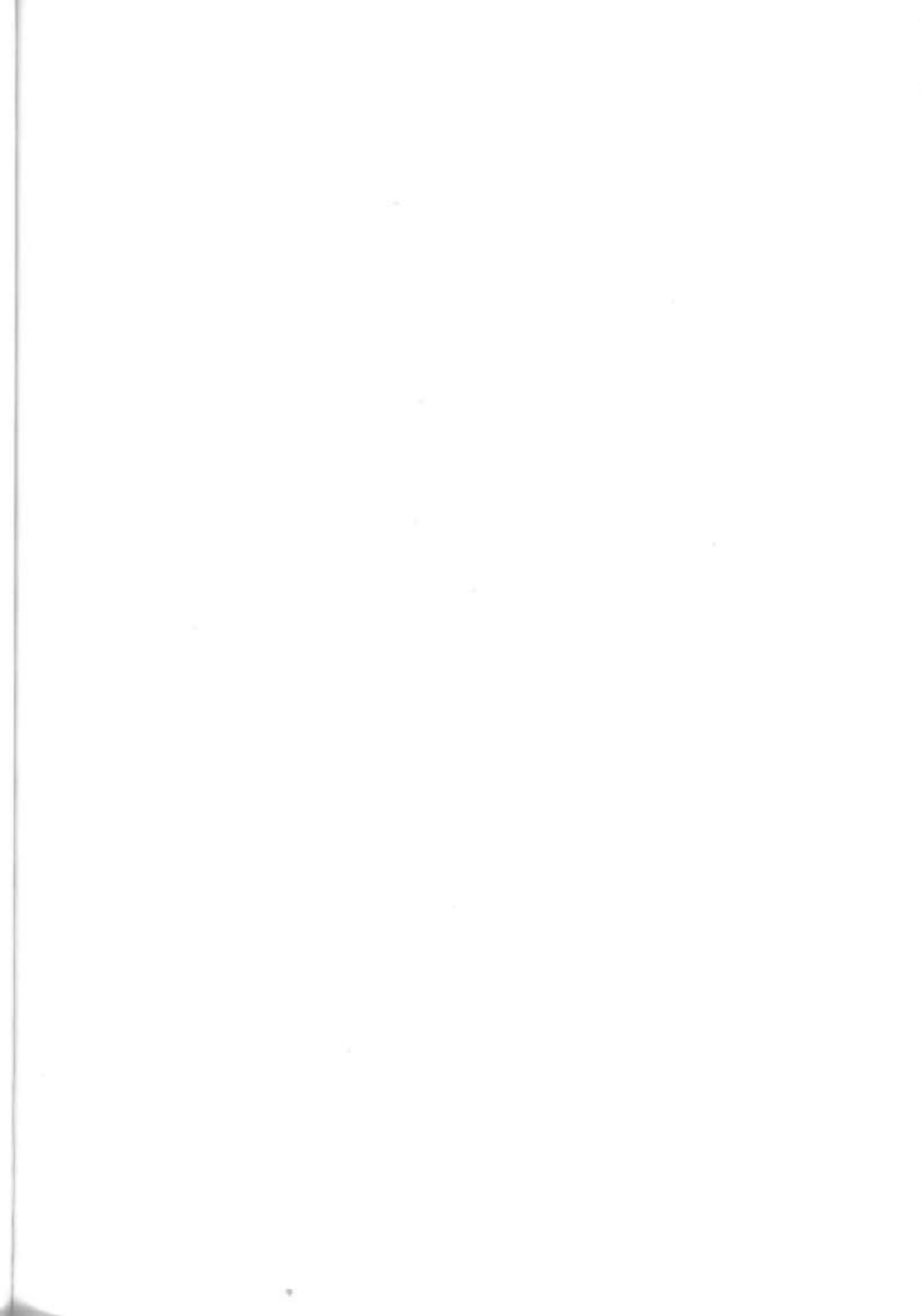
---

(١) الدكتور أحمد أحمد سيد أحمد تاريخ الخرطوم

(٢) نفس المصدر السابق (تأريخ الخرطوم أحمد أحمد سيد أحمد)

الباب الرابع

فى أن المحس المسلمين والمجموعات العربية الإسلامية أسقطت سوبا واحتوت علوة قبل أن تدمرها دولة الفونج ردحاً طويلاً من الزمان



ما أود ذكره الآن بين يدي تقدمتي هذه هو التأكيد على أنه بالرغم من أن من المعروف لكثير من المؤرخين الذين تحدثوا عن سقوط سوبا وتدميرها أن الحدثين منفصلان في الزمان و يختلفان في الأطراف المشاركة في ذلك إلا أنك تجد هنا وهناك من يكتبون عن سقوط علوة ويعدونه أنه هو نفسه خراب سوبا أو أنه تبعاً لسقوط علوة تم خراب سوبا وكأنه تداعي منطقي لحصول الآخر تبعاً لحصول الأول علماً بأن مجموعة من المؤرخين أمكنهم التفرقة بين هذا وذاك. أرى من الفائدة أن أقدم لهذا الموضوع بكلمات للمؤرخ المحسي الخزرجي المعروف الشيخ الصديق أحمد حضرة [1] الآتية :-

(تاريخ النوبة العليا منذ دخول النصرانية إليها في القرن السادس للمسيح الى إنقراضها منها وخراب سوبه سنة ٩١٠ للهجرة. وذكر أيضا في تتمته للموضوع الآتي:- (وقد كان النوبة الأصليين قديماً وثنيين كالبجا فلما إنتشرت النصرانية في مصر إمتدت إليهم فاعتنقوها سنة ٥٤٥

أفرنكي وبقوا الى أن تغلب العرب المسلمين عليهم في عام ١٣١٨ أفرنكي فاعتنقوا الإسلام مضطرين ولكنهم بقوا محافظين على لغتهم ......إلخ).

---

(١) جاء في موسوعته التاريخية المحفوظة لدى دار الوثائق المركزية بالخرطوم وعند أحفاده حفظهم الله والتي أسماها: (حسن المسايرة والأرب في معرفة أصول أنساب قبايل العرب فترى فيما أورده المؤرخ الشيخ الصديق أحمد حضرة زمن الخراب كان في ١٩٢٠هجرية أي في القرن السادس عشر الميلادي بينما جعل الغلبة والسقوط في ١٣١٨ أي بداية القرن الرابع عشر الميلادي وهو المطلوب إثباته فيما يلي هذه المقدمة .

أن التدمير تم بعد تأسيس دولة الحلف الفونجي العبدلابي في عام ١٥٠٤م أي بعد حوالي ٢٠٠ عاماً أو يزيد وأثر الفرق الزمني إنسحب على كثير من الحقائق التأريخية الغائبة

أولاً التدمير حصل لسوبا وساكنيها غالبيتهم من المسلمين حيث لجأ من بقي من المسيحيين الى قري وبقي في سوبا عدد قليل منهم.

ثانياً التدمير كان بسبب الترويج لبناء سنار العاصمة الجديدة حيث لازالت سوبا هي المنافس الخطير لها .

ثالثاً ما تم أخذه من المسيحيين الذين كانوا موجودون في سوبا زمن التدمير هو من باب أخذ أموال الناس بالباطل لأنه لا يدخل في الغنيمة، ولذى تجد أن الشيخ إدريس بن محمد الأرباب رحمه الله صرح بذلك وسجل التأريخ تصريحه عندما أراد الملك بادي بن رباط أن يمنحه نصف مساحة الأرض من العسل الى البصل فامتنع الشيخ إدريس وقال :-((هذه الدار دار النوبة وأنتم غصبتوها منهم أنا ما بقبلها))[1] .

وأن وجود المحس الخزرج في شرق النيل والنيل الأزرق وحول علوة والمجموعات العربية كان لها دور في سقوط علوة السابق لقيام دولة الفونج بأكثر من قرنين من الزمان.

---

(١) كتاب الطبقات لمحمد النور بن ضيف الله تحقيق البروفسر يوسف فضل

لقد كان لهؤلاء المحس دور كبيرفى تقويض أركان مملكة سوبا المسيحية وسقوطها[1] .

أعداد كبيرة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر (الميلادى) نحو مملكة علوة حتى غلبوا على أهلها ووهن أمرها. وتقول المصادر إن الوهن العام لدولة علوة قد إنعكس على كنيستها ، فمنذ منتصف القرن الرابع عشر أصاب كنيسة علوة شيىء من الذبول بسبب توقف وصول الأساقفة من الكنيسة الأم بالإسكندرية .

ملحوظة هامة وأقول إن إرجاع إسم القبيلة القديم المحس وإطلاقه مجددا على المحس المسلمين كان بسبب إبنهم الشجاع محمد بن مرزوق بن الملك سعد (الملقب بـ محس) ١٢٠٠-١٢٧٠ (تقريبا) للتفرقة بينه وبين إسم (محمد) المكرر في كل قبائل العرب المسلمين لتمييزه عن غيره و قبله كانوا قد نسبوا الملك جامع إلى جوامع وعدوه فى الأصل ضمن قبائل جهينة كما قال غير واحد من

المؤريخين منهم الشيخ الصديق أحمد حضرة والدكتور أحمد أحمد سيد أحمد. كما وأ ني لا أستبعد أن الإسم محسن هذا قد نقل خطأ نتيجة تصحيف ما والصحيح هو محمد محس أي المحسي وعند إضافة نسبته للمحس لأن العرب لم يعهدوا إسم محسن في تسميتهم على الأقل آن ذاك .

---

(١) دكتورة سامية بشير دفع الله النوبة الأصل والتاريخ فى مجلة دراسات أفريقية – جامعة إفريقيا – العدد الرابع عشر – يناير١٩٩٦م فى معرض حديثها عن دور المحس المسلمين السياسى والحربى

وإننى هنا أيضاً وقبل الدخول الى ما شاهده الرحالة العرب والمسلمون و أخص منهم بالذكر أحمد بن حوقل أود أن أكتب باباً لتأييد ما أنطلقت من أجله من وجود معتبر لإمارات مسلمة منذ وقت بعيد قبل دولة الفونج وبخاصة ما بين القرن التاسع والسادس عشر الميلادى و أيضا لتصحيح ما إعتاده المؤرخون عند ذكرهم للمحس المسلمين بمنطقة إلتقاء النيلين فى فترة نهاية حكم علوة والذى أصبح من العادة أو بالأحرى الديباجة للمرور الى حكم دولة الفونج وهو أنهم يقولون دائما هذا التعبير : - ((عندما قدم المحس الى منطقة التقاء النيلين فى بداية القرن السادس عشر واستوطنوا الخوجلاب والحلفايا وجزيرة توتي ...... الى آخر الديباجة)) دون الوقوف أو التنبيه لما كان من شأن الإمارات المسلمة بما فيهم التي تخص المحس المسلمين والتى كان لها قصب السبق فى سقوط دولة علوة قبل قيام دولة الفونج بسنوات طوال علما بأن علوة كانت معروفة بالقوة العسكرية والإقتصادية والسياسية حيث كانت تحتها المقرة ومريس وكل الإمارات المسلمة التى وجدت فى المنطقة والتى سوف أذكر أهمها الآن. فكان لابد لها من مقدمات للإنهيار أو السقوط النهائى. وأيضا لاثبات أن محس الوسط كانوا قد قدموا الى منطقة الوسط قبل القرن السادس عشر الميلادى بأسباب أخرى مثل الجهاد إضافة الى الدعوة الإسلامية وإقامة الخلاوى لتحفيظ القرآن والفقه.

الفصل الأول

لوجمعت المجموعات العربية المسلمة سلطة سياسية لحكمت سوبا منذ القرن الرابع عشر الميلادي

وهو ما ذهب اليه الدكتور مصطفى محمد سعد (أن لو كان للمجموعة العربية إتحاد وسلطة سياسية لكان حدد تاريخ سقوط علوة ببداية القرن الخامس عشر وليس السادس عشر)

وحيث أنى أدعي وجود المحس والمجموعة العربية الإسلامية بمنطقة إلتقاء النيلين وما حولها فى القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادى قبل أن يجتمعوا بعد ذلك مؤيدين لعبد الله جماع الشق الآخر المؤسس لدولة الفونج وأنهم أسقطوا سوبا في ١٣١٨م لذا جاز لنا أن نقول لحكمت سوبا منذ القرن الرابع عشر الميلادي بدلاً من الخامس عشر كما صرح أستاذنا أعلاه .

بالإضافة الى ذلك ان موضوع سقوط مملكة علوة المسيحية والذى أحاول التدليل فى بحثى هذا أنه سبق قيام دولة الفونج بحوالى قرن أو يزيد من الزمان والآخر اشتراك المحس المسلمين فى ذلك من خلال ما ورد فى غير موضع من أن مجموعتنا العربية ادرجت فى المجموعة المسماة بجهينة وأن هناك مجموعة أخرى تسمت برفاعة وهى غير رفاعة الاشراف ورفاعة الثانية المستقرة فى المكان المسمى بها الآن وأن تشكيلنا لدموغرافية الوسط قد تعدت ذلك الى جبل

ميدوب فى شمال دارفور حيث لازالت علاقتنا بهؤلاء المحس المسلمين (حيث يسمون الأبالة فى تلك المنطقة) الى اليوم وزيارة وفد منهم لنا بجزيرة توتي فى عام ٢٠١٠ميلادية كان لتأكيد هذه العلاقة.

فأقول ان الاشارة التى قدمت لها بهذه السطور ورد ما يؤيدها (١) وقد تعرضت لبحثه فى غير موضع لما فيه من المعلومات المهمة التى تخص الفترة المجهولة أعنى فترة ما قبل قيام دول الفونج الإسلامية حيث يقول الدكتور مصطفى محمد مسعد معتمداً على بن خلدون والمقريزى وهاملتون واندرسون وماكمايكل وعباس عمارة وأيضا تحقيقه الخاص فى الموضوع الآتى :-

والواضح تماماً أن سقوط مملكة مقرة المسيحية أوائل القرن الرابع عشر الميلادى، أدى الى ازدياد موجة الهجرات العربية ولاسيما بعد أن بات السابقون من العرب فى شغل بمنازعاتهم الداخلية عن المهاجرين الجدد، وربما كان أشد هذه الهجرات الجديدة عنفاً، هجرت جهينة التى أشار اليها

إبن خلدون وهى واحدة من خليط هائل من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة التى تجمعت فى أنحاء النوبة الشمالية، على حين تجمع فريق آخر منها عقب سقوط دنقلا فى أرض البطانة والجزيرة ونشأت على اثر ذلك بعض المهاجر العربية قرب سنار الحالية. وعن طريقة تحركهم والتى لم يعزوها أنها كانت للفتح، يقول في نفس المرجع:-

---

(١) فى كتاب الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى دكتور مصطفى محمد مسعد

(والراجح أن معاينة تلك الجماعات للمراعي الغنية ترامت أخبارها الى ذويهم فى الشمال فاندفعت جموعهم شمالاً ولا سيما أولئك الذين حافظوا على بداوتهم بعد أن ضاقت بهم مهاجرهم فى النوبة الشمالية بسبب فقر بيئتها وندرة مراعيها). لكن كيف شق أولئك المهاجرون طريقهم الى الجنوب؟ هل اضطروا الى شن الاغارات على الوطنيين والدخول فى حرب ضد مملكة علوة المسيحية؟

يقول إبن خلدون :- ((وانتشروا (أى جهينة) ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكاثروا هناك سائر الأمم وغلبوا على بلاد النوبة، وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم فحاربوا الحبشة وأرهقوهم الى هذا الحد. [1] وهو كتاب وبحث للدكتور مصطفى محمد مسعد والمفهوم من هذا أنه

بعد سقوط دنقلا فى يد العرب أضحت المنطقة الممتدة من حلفا الحالية الى شمال غربي الحبشة مسرحاً لأعمال النهب والتخريب مدة لا تقل عن ثلاثمائة عام [2] وأن العرب فى تقدمهم جنوبًا قتلوا كثيراً من النوبيين وأسروا بعضهم حتى اضطر كثير من النوبيين الهجرة غرباً الى تلال نوبا فى جنوب كردفان، وجبل حوزا وكاجا وغيرها فى شمال كردفان [3] غير أنه يبدو أن العرب لم يقابلوا فى تقدمهم جنوباً الى جهات علوة وغيرها مقاومة عنيفة لعجز ملوكها عن دفعهم. واذا كانوا اضطروا أحياناً الى استخدام العنف، فان

---

(١) الإسلام والنوبة في العصور الوسطى دكتور مصطفى محمد مسعد

(٢) (Walkely -C.F.J. : (The story of Khartoum

(٣) (Sager JW : (Notes on the history) (Relision and customs of noba

الطابع العام لهذه الهجرات كان سليماً (وأحسبه تصحيف والكلمة سلمياً هذا من كلامى أه) ونجحوا فى تحقيق مآربهم لا بحد السيف بل بالاختلاط والتزاوج من بنات النوبيين وملوكهم .

ثم الإشارة الى قول ماكمايكل ((ان كل الدلائل تشير الى ان النصر – باستثناء أقاليم معينة كإقليم جبال النوبا، حيث لا يزال العرب يمتلكون السهول، على حين يسكن الزنوج التلال – قد تم غالباً بالاتفاق أكثر مما أكتسب بقوة السلاح. ويمكن القول ان الظاهرة الأساسية فى التاريخ الجنسى لشمال السودان ووسطه منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى كانت ظاهرة الاندماج التدريجى بين العرب.

السود)) . لاشك أن لهذا الرأي وجاهته فهو يتفق وما ذكره بن خلدون فى صدد هجرة جهينة الى بلاد النوبة علوة.

ملحوظة هامة

اذ تلاحظ أن كثير المؤرخين الذين كتبوا فى فترة القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادى يذكرون أن الاندماج بين المجتمعين النوبى المسيحى والعربى النوبى المسلم المندمج مع النوبة فى الشمال أو مع البجا فى الشرق أن هذا الاندماج كان فى فترة تقدر بحوالي قرن من الزمان فكيف يستقيم ذلك دون وجود الطرفين فى ذلك الوقت والمكان المحددين وهذا ما أحاول اثباته بل أحاول اثبات ما هو أكثر من ذلك وهو أن مملكة علوة اضمحلت وانتهى أمرها ولكن على يد مجموعة من القبائل العربية اتحدت جهادياً ولم تتحد سياسياً

مما حدا بالاتحاد السياسى المتكون فيما بعد تدمير علوة وتدمير كنائسها نهائياً ايذاناً ببدء المملكة الإسلامية والنظام السياسى المتحد والشامل لكل الاقاليم التابعة لها وهذا سبب تساؤل جى . واى . آدمز عن ماذا كان دين علوة عند سقوطها لأنه يرجح أنه كان الدين الإسلامى انتهى كلامى .

ثم أن الدكتور مصطفى محمد سعد واصل حديثه بقوله :- (أما عن اضطراب فى بلاد النوبة وأوطان البجه حتى حدود الحبشة ، فكان بسبب النزاع بين القبائل العربية ذاتها لسبب أو لآخر. وتشير بعض الرويات التاريخية الى وجود مثل هذا النزاع بين قبيلتى جهينة ورفاعة أواخر القرن الثالث عشر الميلادى قرب عيذاب ولعل فى اشارة بن خلدون الى انقسام العرب على أنفسهم ما يزيد فهمنا لما صار اليه هذا الجزء من حوض النيل أوائل القرن الخامس عشر الميلادى . اذ يقول ((واستولى أعراب جهينة على بلادهم (أى بلاد النوبيين فى علوة) وليس فى فى طريقه(أى ليس فى طريقة استيلائهم) شيىء من السياسة الملوكية للآفة التى تمنع انقياد بعضهم لبعض فصاروا شيعاً لهذا العهد.)) وأقول أنه لو كان هناك تنظيم سياسى يضم قبائل جهينة و رفاعة لكان حدد تاريخياً سقوط علوة فى بداية القرن الخامس عشر وليس فى بداية القرن السادس عشر كما هو معروف عند الغالبية الآن انتهى كلام الدكتور مصطفى محمد مسعد).

ملحوظة: وأن سطوره الأخيرة هذه هى نتيجته التى استقصاها من سرده لأحوال القرنين المذكورين فى صدر الموضوع والحقيقة إن بحثه وكتابه الإسلام والنوبة في العصور الوسطي كله يمثل الفترة التي

إستهدفتها لإثبات أن سقوط سوبا غير خرابها ولما هذه المعلومة من أثر واضح في ديموقرافية المنطقة في ذلك الزمان الذي سبق زمان دولة الفونج - أ ه كمال

ثم ذكر الدكتور مصطفى سعد :- أما ما ذكره بعض المؤرخين عن التجاء بعض العناصر النوبية الى جبال جنوب ووسط كردفان ودارفور هرباً أمام مذابح العرب ، فليس هنالك ما يؤيده . والراجح كما يقول ماكمايكل : ((ان أولئك المهاجرين من بلاد النوبة عقب سقوط دنقلا ، الى جهات كردفان ودارفور لم يكونوا نوبيين خلصاً بل كانوا يمثلون خليطاً من العرب والنوبيين (النوبيين المستعربين) ومن هؤلاء سكان جبل ميدوب فى شمال دارفور والتنجور والبرقد كذلك) . ويضيف ماكمايكل أن سكان جبل ميدوب يدعون النسب الى المحس . وقد أشرت لزيارة الميدوب فى مقدمتى لهذه الصفحات الى جزيرة توتي كمركز للمحس فى الوسط للتأكيد لنا أنهم من نفس القبيلة المحسية فى الشمال السوداني .

فصل الثاني

فى أن سوبا قد أسقطت بواسطة حاكم مسلم غير معروف للعالم الخارجى ردحاً من الزمان

ما توصل اليه العالم العلامة البروفسير ويليام واى آدمز[1] هو الآتى:- ((بقراءة تسلسل الأحداث الزمنى، ما بين السطور، يبدو كأنما أقاليم علوة التى كانت ممدودة مرة إلتهمت بالغول البدوى حتى لم يبقى منها شيء سوى المقاطعة النهرية بالقرب من ملتقى النيلين ثم قرر العرب والفونج الإجهاز على المملكة المضعضعة وتقسيم أقاليمها المتبقية بينهم .

إن صعود عمارة دنقس ، الأول من السلاطين السود لسنار مشهود تاريخيا. مع ذلك ألقى العالم الحديث على الأثر المأثور بأن عهده بدأ بالإطاحة بعلوة . فالمعتقد الآن أن هذا كان عمل العرب وحدهم ، وأنهم بدورهم أخضعوا من الفونج فى تاريخ لاحق. إستحوز المنتصرون بعد ذلك لتاريخهم الخاص إنجاز سلفهم الباهر. وسواء كان ذلك قصة حقيقية أم لم يكن ، رقما عن كل شيء، فإن النسخة

التقليدية للحكاية كما أخبر بها فى سجل أحداث الفونج مثيرة للإهتمام بسبب موسقتها لدعاية الدولة. إن السلاطين السود فيما

---

(١) من كتب البروفسر جي واي آدمز (النوبة رواق إفريقيا) وقد منح في عام ١٩٧٤م جائزة أفضل منت كتب عن النوبة وقد ترجم الكتاب للعربية الدكتور محجوب التجاني محمود ص٤٧٤

هو مرئي قدروا إكساب حكمهم الشرعية بتعريف مملكتهم فى سنار كدولة وريثة (بحق الفتح) لعلوة. ولما كان الفونج أنفسهم لم يحكموا أبدا من سوبا، يعهد الوصف الممتد لقوة المدينة وثروتها فى أزمان المسيحية ، الذى يستهل به تسلسل الأحداث الزمنى ، مفهوما كمحاولة وحسب لعكس بعض مجدها لفاتحيها . يبدو بالتالى ، أن إسم علوة وسمعتها – لا يزال باعثا على الإحترام والسلطة فى القرن السادس عشر، لذلك فإنه يهم حتى فى القرن التاسع عشر . ليوثق الدكتور وليام لما كان يؤمن به فانه فى صفحة ٤٧٥ ذكر الآتى :-

((تقليد ما يختلف تنوعا حفظه العرب العبدلاب (كما إشتهر مدمرو سوبا على أثر أيام قائدهم الذى ينسب له الإسم) يؤكد أن آخر أحياء بعد هجوم العرب فروا من سوبا وقاموا بوقفة أخيرة فى حصن فى قرى نحو أربعين ميلا الى الشمال وعلى أساس هذا الفصل من الرواية تعرف هه.ن. شيتيك على مجمع فى قمة تل يغلب عليه تحصين خشن على مدخل شلال السبلوقة بالقرب من قرية قري الحديثة، على أنه آخر معقل مسيحي فى السودان جانب من المصداقية موضع المساءلة بالنسبة لهذا الموقع، مع ذلك يبعد سجل أحداث الفونج من أن يكون واضحا فى شأن دين علوة وقت الإطاحة بها . إن الذكر الوحيد عن للمسيحية جاء فى ذلك الجزء من النص الذى أخذ من سرد إبن سليم السابق له بزمن طويل .

ولما كان الإتصال بالإسكندرية قد توقف فى القرن الرابع عشر يبدو ممكنا للغاية أن علوة كانت قد دمرت بواسطة حكم مسلم – غير معروف للعالم الخارجى – ردحا بعيدا قبل سقوطها النهائى))

إنتهى .

ثم إن البروفسير ويليام واى آدمز ذكر فى نفس المرجع صفحة ٤٧٤ فى معرض أن هناك صلة ما بين الإسكندرية والنوبة السفلى أى علوة ذكر ((مدون فى تاريخ البطرياركيات القبطية أنه بعد عام ١٢٣٥م لم يبعث قس من الإسكندرية وتركت الكنيسة النوبية لتدبير شؤنها بنفسها .... الى أن قال على أى حال نملك الآن بيينة وجود صلة بين النوبة السفلى والإسكندرية متأخرا بحساب معتبر)) إنتهى

فأستنتج الآتى :-

(يبدو ممكنا للغاية) تعبير بالإنجليزية يفهم منه أيضا بأن البروفسير ويليام مؤمن بأن هناك من فعل ذلك من المسلمين دون تسميتهم لعدم معرفة العالم الخارجى لهم كمجموعة تحت اسم خاص وأن ذلك قبل سقوطها النهائى على يد عبد الله جماع والعرب المساندين رغم أن قبيلته ضمن من أسقطوها قبل شقه الآخر المكون لدولة الفونج الإسلامية.

وأقول هذا واضح جدا فى تأييد ما ذهبنا اليه من أن قدوم المحس بمعية مجموعات من القبائل العربية الإسلامية أطلق علي إثنين منها مجموعة جهينة ومجموعة رفاعة لمنطقة إلتقاء النيليين وما حولها وكان ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى .وأيضا هذا من القرائن الدالة على أنه زمن سقوط دولة علوة لم يتعدى القرن الخامس عشر الميلادى ان لم يكن قبل ذلك . ثم أنه من الملاحظ فى هذه الفترة أن المتحدث عن دولة علوة يذكرها باسم الأبواب رغم أن الأبواب هى

الجزء الشمالى منها والحد الفاصل بينها وبين المقرة وما ذلك الا لأنها لم تكن موجودة كدولة آنذاك كما لاحظ ذلك كثير من المؤرخين . إضافة الى توقف إيفاد الكنيسة الأم بالإسكندرية القساوس رسميا بعد عام ١٢٣٥ميلادية مما يؤكد مجددا أن علوة فى ذلك الوقت انتهت كدولة وآيلة للزوال نهائياً وهو زمان يسبق قيام دولة الفونج بسنوات ليست بالقصيرة وهذا ما أردت اثباته هنا .

فى القرن الثامن الميلادى تمكن المسلمون أيضا من عقد معاهدة ممثالة مع البجة مكنتهم أيضا من التوغل فى ديارهم –إشارة للمعاهدة النوبية- وكان من نتائج ذلك أن نشأت أول إمارة إسلامية عربية فى بلاد السودان وقد كانت بأرض البجة وهى إمارة عبد الحميد بن عبد الله العمرى وهو من قبيلة ربيعة وقد كان ذلك فى القرن التاسع الميلادى .وكانت بذلك أول مظهر من مظاهر النفوذ الإسلامى العربى وكانت مجموعات من قبيلة ربيعة صاهرت البجة فى وقت مبكر من الهجرات العربية للسودان ، كما صاهرت فرع منها النوبة فى القرن الحادى عشر وقد نجح هذا الفرع الذى عرف بإسم (الكنوز) اشارة الى جدهم كنز الدولة بن شجاع الدين العربى الأب النوبى الأم فى مصاهرة البيت المالك فى دنقلا ممهدا بهذا الصنيع الوصول الى عرش النوبة الذى كان ضعيفا من جراء حملات المماليك العسكرية عليه فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

الفصل الثالث

فيه أؤكد أن الممالك والإمارات الإسلامية قامت فى بلاد السودان قبل قيام دولة الفونج الإسلامية بزمن معتبر لتعضيد ما ذهب اليه و ما أكده البروفسر ويليام ويشهد به الواقع :-

أولا

ويمكننا أن نبدأ بشهادة الواقع وهو وجود الحمدلاب المحس فى منطقة العيلفون وما حولها (نسبة لحمد بن مشرف بن زايد بن عجم بن زايد فى بداية القرن الرابع تقريباً) قبل قدوم الشيخ ادريس بن محمد الأرباب اليها وقد ذكر ذلك غير واحد من المؤرخين ومنهم عمدة مؤرخي المحس الشيخ الصديق أحمد حضرة بقوله : -

(أولاد مشرف بن زايد وهم حمد ورحمه أخيه ويسمونهم الحمدلاب سكان العيل فون لجهة أم قحف منهم أولاد قاجراب بجهة أبوعشر وأولاد أب عيسى وأولاد إمام وهم محمد وحاج بن عبدالله بن سليمان بن زايد بن عجم بن زايد بن محمد محسن الذي إنتسبت إليه قبايل المحس بن الملك سعد بن الملك جامع بن الملك حسن بن الملك أحمد بن الملك عامر بن عبد الكريم بن يعقوب بن جابر بن سعد بن موسى بن أويس بن جامع سكر بن سالم بن عبد الرحمن بن علي بن سليمان بن محمد بن زيد بن عمارة بن حارثة بن عبادة بن أبىّ بن كعب

الخزرجي الأنصاري البدري (رضي الله عنه) .

والمعروف أيضا أن ميلاد الشيخ ادريس كان مع ميلاد دولة الفونج مما يدلل أن الحمدلاب المحس كانوا فى هذه المنطقة قبل بزوق نجم دولة الفونج بقرنين من الزمان تزيد أو تنقص يسيراً وأن المجموعات العربية الأخرى قد اتخذت مواقع مختلفة فى النيل الأزرق وشرق النيل وما حولها و النيل الأبيض وغرب السودان مثل الميدوب المحس فى شمال دارفور وأن المجموعة التى تسمت برفاعة والتى ذكر الشيخ الصديق أحمد حضرة بأنها تابعت المسير حتى حدود الحبشة وهى غير رفاعة القبيلة المعروفة وغير الرفاعيين والاثنين من الأشراف حيث ذكر نفس المصدر بتعريفها أنها مجموعة من القبائل العربية المتحدة وهذا ما نود التوصل له أن القبائل التى تسمت برفاعة كان ضمنها جزء من قبيلة المحس بقيادة محمد محس نفسه كما ذكرنا من قبل .

ثانيا

واقع علوة عندما يذكر التاريخ (كانت سوبا بنايات جميلة وحدائق ودار ضيافة يشغلها المسلمون) ثم الواقع الآخر الذى يشهد به التاريخ (تدمير سوبا وخرابها على يد دولة الفونج) ويشهد بالأخير عندما مرة بها الرحالة اليهودى دافيد بوهين فى طريق إيابه عن طريق النيل من الحبشة الى القاهرة .لقد وجد المكان فى خراب وسكانها الأحياء يعيشون فى مساكن خشبية يصعب أن تكون أى شيىء غير رواكيب وهذا المنظر ذكره غير واحد بل إن المثل الشعبى الذى ذاع

حتى اليوم والذى يحكى أسوأ حالات الخراب هو (مثل خراب سوبا) وهو مستفيض المعرفة لدى العام والخاص وهذان الحالتان تدلان على أن هناك مرتان للإستيلاء على سوبا ومن ثم ندلل على أن هناك أيضا مجموعتان إتفقتا على الإستيلاء إختلفتا فى زمنه وطريقته وهو المراد الوصول اليه .

فإذا كان هذا السناريو صحيحا فما هو الفرق بين المجموعتين ولماذا الثانية طالما أن الأمر قد تم ؟! وللإجابة فإن هناك عدة فروق وأظهرها أن المجموعة الأولى لم تكن قد تكونت بنظام سياسى يرمى لتكوين دولة وإنما تنادت هذه المجموعة للجهاد وعندما تم المراد وهو سقوط دولة علوة المسيحية لزمت كل مجموعة موقعا خاصا بها فى منطقة الوسط لتستقر به ومنه تباشر الدعوة للإسلام .

أما المجموعة الثانية وهى لنفس مكونى المجموعة الأولى بعد فترة من الزمان لاتقل عن نصف قرن الى قرنا كاملا أو يزيد إلا أنه هذه المرة كانت للتنظيم لقيام حكم إسلامى وكيان سياسى إجتماعى إقتصادى فانضمت مؤيدة لعبدالله جماع بالإئتلافه مع الشق الآخر عمارة دنقس قامت دولة الفونج الإسلامية مباشرة وتم توزيع أدوارها السياسية المعروفة بين الشقين.

و ما حدانى للقيام بهذا البحث فى هذه النقطة الهامة بالذات هو أن علماؤنا الأجلاء الاختصاصيون فى موضوع التاريخ يعتمدون الممالك والإمارات الإسلامية فى السودان اعتبارا من تاريخ قيام دولة الفونج الإسلامية وحدها دون ماقبلها ولبعضهم العذر فى ذلك حيث لا توجد

مصادر تاريخية تؤرخ لتلك الفترة الا أنه لا عذر لهم فى عدم الإشارة بأنه كانت هناك ممالك إسلامية موجودة قبل تلك الفترة بعدة قرون مثل امارة عبد الحميد بن عبد الله العمرى فى الشرق رقم قصر مدتها وامارة المحس فى سدلة و عبد الله برشمبو فى دنقلا وامارات مسلمة لها حكام مسلمون فى البطانة وغيرهم كان لها الأثر الواضح وخاصة بعد الانضواء تحت لواء عبد الله جماع لتمكين العبدلاب من المشاركة مع عمارة دنقس لتأسيس أول كيان تمخض عنه قيام دولة إسلامية موحدة تشمل أغلب حدود السودان وتقوم على أنقاض دولة قوية مثل علوة المسيحية عرفت بدولة الفونج الإسلامية التي أعلنت دولتها بتدمير ومحو أثار مدينة سوبا عاصمة دولة علوة نهائياً وترحيل الكثيرين من أهلها الى سنار العاصمة الجديدة للدولة الجديدة آنذاك

الباب الخامس

إجتماعنا بمجموعة من محس الشمالية
بجزيرة توتي
وزيارة مجموعة من جزيرة توتي للمحس
بأرض المملكة الشمالية



الفصل الأول

عن إجتماعنا مع بعض شباب أهلنا المحس في الشمال السوداني

وهم من ارتمري وكوكا وهم أيضا من المهتمين بتدوين تاريخ المحس، ومنهم عاطف الامين حفظ الله من احفاد حسين بن الملك جامع بن الملك حسن، والاخ محمد بري أحمد كمبال من احفاد الملك ناصر بن الملك جامع بن الملك حسن وذلك بجزيرة توتي الجمعة ١٦ مايو ٢٠٠٨م، ودعوتهم لنا لزيارة منطقتهم فى غرة محرم ١٤٣٠ من الهجرة الموافق السابع والعشرين من ديسمبر عام ٢٠٠٩ م ومن اهم النقاط التى وردت في تداول المعلومات فى إجتماعهم بنا فى جزيرة توتي وأن المتحدثين سالفى الذكر اتفقا على أن ابناء الملك جامع بن الملك حسن المعروفون في موطن الملك جامع بن الملك حسن بن الملك أحمد هم اربعة فقط ، وهم الملك ناصر وجلال وحسن وحسين مع تأكيدهم العلم أن أبناء الملك جامع ستة ذكرهم كل من تكلم عنهم ممن كتبوا فى تاريخ ملوك المحس، مما يجعل معلومتهم هذه قرينة هامة توضح ان اللذان رحلا جنوبا لتأسيس ملكهم في جزيرة توتي هما الملك سعد والملك مكن أو أحفادهما، وخاصة اذا علمت ان كل محس الوسط بما فيهم محس توتي ينتمون الى الملك سعد والملك مكن. بالإضافة الى الاضاءة الواردة في كلام الدكتور/ جعفر ميرغني اشارة شاهد العيان أحمد بن حوقل بأنهم سبقتهم

مجموعات نوبية منها التي إستقرت في بحر ابيض او النيل الازرق مع علوة النصرانية قبل الف سنة، والإسلام واللغة دليل واضح على ان القوم من حولهم مساندون لهم ومسالمون (ان لم يكن جامع سكر نفسه هو المؤسس قبيل مجيئ ابن حوقل لهذه المنطقة)، علما بأن المجموعات النوبية المسيحية والمسلمة ليست قبيلة واحدة وحتى الذين كانوا نتاج المصاهرة العربية الا انهم يمثلون الدعم والمساندة كمجموعات مسلمة، ويذكر اهالي توتي ان هناك اثار لحجارة وادوات فخار لم يكشف عنها، فلا نستبعد أن تكون قصر لمملكة مكن واخوه سعد، ومن قراءة ان الملك مكن انجب الملك حمد الذي انجب الملك علي برسي الذي انجب الملك الزبير فان مكن اخذ السلطة السياسية وترك لأخيه الملك سعد السلطة الدينية، وهذا النظام متعارف عليه بين ملوك "الخزرج" النوبة المسلمين وكان عهد الملك مكن والملك سعد في حوالي ١١٥٠م الى ١٢٠٠ ميلادية، وهنا تبرز فرضية أستاذنا قيس ابراهيم أحمد علي حيث يكون اقرب الباحثين لما ذهبت اليه في بحثي هذا، وقد كان يصر دائما على ان محمد محس هو مؤسس جزيرة توتي وهو ابن الملك سعد مرزوق بن سعد على الأرجح، وقد تحدث عن محمد محس هذا الدكتور/ عمر يوسف الطيب، من إستقراء فترة وجوده والتي قدر لها بـ ١٢٢٣ ميلادية ومن واقع حال تلك الفترة وهي مناوشة المجموعات المسلمة لملوك النصارى ومن واقع ما لقب به محمد محسن وهو محس، وتعني بلغة النوبة الشجاع المقدام، وانه ربما كان قائدا لأحدى المجموعات الإسلامية وبحكم موقعه كإبن للملك سعد بن الملك جامع (أو مرزوق بن سعد بن الملك

جامع) كما ذكرت سابقاً.

ومن أهم نتائج هذا البحث هو أن مملكة المحس "الخزرج" الإسلامية والتى عرفت بمؤسسها الملك جامع وأخيه سكر وقد عرف بأبية فى بعض روايات النسب وخاصة تلك التى وردت عن الشيخ خوجلي أبو الجاز ب (جامع سكر) أما بخصوص موضوع النسب وثبوته أم عدمه ؟ وهل وهو ما تبادلناه مع إخواننا المذورين أى العربى الى أبى بن كعب ؟ أم أننا جميعا مستعربة باللغة ونسى محس الوسط اللغة بعد مفارقة أهلهم بالشمال السودانى ؟

أولا :-

قراءتنا للنوبة المسلمين بأنهم متعربون بالإسلام والثقافة العربية الإسلامية فقط. فهى قراءة صحيحة ونحن نؤمن بذلك ونؤمن بأن هذا لا ينطبق على النوبة فقط بل على كل القبائل والبلاد التي دخلها الإسلام،والتى اسلمت وتعربت به ان كانت فى في السودان أوفي إفريقيا أوحتى في بلاد السند و الهند وباكستان، وغيرها. ونعتقدفى تلك القبائل :-

أ) أن السمة الواضحة لهؤلاء انهم يحتفظون بلسانهم الاصلي مع اللسان العربي، بل ويتعاملون بلسانهم الاصلي في معاملاتهم الرسمية والشخصية في كثير من الاحيان، خاصة ان كان لسانهم الاصلي مكتوبا، وهذا الحكم حكم عام ومشاهد فى الواقع.

ب) هناك استثناءات من هذه القاعدة أو القراءة المذكورة فى

الفقرة (أ) ومن أهمها أن العرب المسلمون صاهروا بعض الذين هاجروا اليهم وإستقروا في مناطقهم وهناك امثلة في جميع البلاد الإسلامية من مهاجر المسلمين، ولا نرى أن هناك بأسا، فيما اذا تزوج سليمان بن محمد بن زيد امرأة من النوبة وانجب علي، او تزوج علي نفسه وانجب عبد الرحمن، ذلك ان العرب المتزوجون من النوبة أيضا لهم سمات، واهمها انهم يتكلمون العربية فقط في الغالبية العظمى منهم وانهم اولا واخيرا عرب بانتمائهم لأبيهم، ثم انهم نوبة لانتمائهم للشق الثاني والمثال الواضح للنوبة الذين هم من جد عربي هو محس جزيرة توتي ومن حولها من محس الوسط ، فانهم يتكلمون العربية فقط ونسوا لغة أهلهم في الشمال، رغم ان الذين يشاركوننا في الجد العربي بإستقرارهم مع أهلهم النوبة تعلموها وتكلموا بها وهذا استثناء وليس قاعدة ، اي ان في الامكان ان يكونوا عرب نوبة او جنس من النوبة كما ذكر الرحالة الجغرافي أحمد بن حوقل.

وإنطلاقا من هذا الفهم فإننى أرى بأن جدنا الاول عربي تزوج من النوبة وكل من سبقونا من ابائنا المهتمون بالتاريخ والذين تعرضوا لهذا الموضوع قالوا انه من قبيلة "الخزرج" من ذرية ابي بن كعب، وتحدثوا عن سلسلة اسماء بعينها محفوظة لدى الذين هم في الشمال السوداني وعندنا أيضا، وهي مطابقة بنسبة كبيرة ترقى للتطابق إلا النذر اليسير الذى لا يؤثر فى أصل المعلومة شأننا فى ذلك شأن كل العلوم المنقولة بالرواية والتدوين، وهو المطلوب اثباته من بحثنا في تاريخ المحس ورأس السلسلة المطلوب البحث عنه هو جامع سكر بن سالم بن عبد الرحمن بن علي بن سليمان بن محمد بن زيد بن

عمارة. وهذا جامع الكبير غير الذى ذكره الشيخ خوجلي أبوالجاز فى سلسلة النسب مع ملاحظة أن الشيخ خوجلي أثبت الإثنين و هذا مما أفادنى كثير وهو من أجمل الإضاءات فى سلسلة النسب المحسية الخزرجية. مما جعل سكر الثانى فى نطاق بحثي المنشود.

نرجو زيارة أهلنا في مناطق المحس المختلفة من جبل دوشة وسيسه وكوكا وارتمري وارغو وجزيرة بدين ودنقلا وأهلنا في كردفان وشمال دارفور وفى الساقل مع الجعليين وفي رفاعة والهلالية وسنار وبجميع مناطقنا المتفرقة فى النيل الأزرق والنيل الأبيض والبطانة والجزيرة، فان الذي ذكرته اخيرا جامع سكر هو جدنا جميعا،وقد بدأنا بالفعل بزيارة مسقط رؤس أجدادنا المحس "الخزرج" المسلمين من صلب الملك جامعسكر بن أحمد بن حسن وأفردنا لزيارتنا لمسقط رؤوس الأجداد الذين هم أحفاد الملك جامع المذكور فصلاً كاملا بحمد الله ورحمته .

الفصل الثاني

زيارتنا التاريخية للأرض التي قامت عليها مملكة المحس "الخزرج" الإسلامية وموطن الأجداد

وهي الزيارة التأريخية لأرض المحس فى الشمال موطن الأجداد الأعلى لمحس الوسط بمملكة المحس الإسلامية بالشمال السودانى.

لنا أن نذكر بين يدي الرحلة التأريخية بإن ما نعرف من إستقراء التأريخ عن أرض النوبة بأنها تمتد من أسوان الحالية وحتى أعالي النيل الأزرق من حدود الحبشة مرورا بمنطقة سوبا وسنار بمحازاة الجهة الغربية للبجه . حيث أننا نبحث عن جذورنا علينا معرفة الى أي إتجاه من مناطق النوبة في السودان نيمم الشطر .

كنا قد إجتمعنا على عدة خيارات قبل أن نلتقي بإخواننا الذين قدموا من نفس منطقتنا التي نبحث عنها إنبثقت من عدة إضاءات لابد لنا من إيرادها لنزداد علماً ويقيناً بصحة ما توصلنا إليه .

فالاضاءة الاولى :-

ان الرحالة الجغرافي قد وجد وشاهد عند زيارته لمنطقة سوبا والسوبابي (الصبابي) والنيل الابيض جنس من النوبة ووجد جماعة المسلمين ووجد اللغة العربية وذلك قبل الف عام من الان،

الاضاءة الثانية : -

تقرأ مع قرينة لأهلنا المحس في شمال السودان، وهذه مع تلك تشكل لنا فرضية منطقية لأول وجود للنوبة المحس "الخزرج" بجزيرة توتي وما حولها، وكانت منطقة ملكهم منطقة سدلة جنوب جبل سيسه أو سيسب قبل ان يتحول الى منطقة كوكا، وهذا معروف لمحس جزيرة توتي لعهد قريب جدا عاصره جدودنا المباشرين، وكان اخر ملوك المحس "الخزرج" بـ كوكا هو الملك عبد العزيز بن الزبير بن دياب، وهو من احفاد الملك ناصر بن الملك جامع، مؤسس مملكة سيسه قرب كوكا. وقد ذكر المؤرخ الشيخ الصديق أحمد حضرة (١٧٩٨م الى ١٩١٨م) وهو شاهد عيان بأن ملك المحس استمر حتى الفتح المصري.

هذا وأيضا وقد طلب الخليفة عبد الله من الملك عبد العزيز الإستقرار معه في ام درمان لأهمية شخصية بهذا المستوى وقبيلته تحيط به مع اعتبار وزنها الدينى والتاريخى، فبقي في ام درمان غير راض فراق مملكته وأهله في الشمال، وتوفى في ام درمان فأرسل حامد بن الملك عبد العزيز الى أهله في جزيرة توتي، وقد وفد اليه اهالي جزيرة توتي وقاموا بواجب العزاء،

ولنا وثيقة هامة في ذلك ان كتب الفكي الهادي بن الخليفة بن محمد مضوي كتاب عزاء للأهل في البلد حسب تعبيره موقعا منه ومن العمدة أحمد ابراهيم. وقد صدره بعزاء اخوان الملك عبد العزيز، وذكر فيما ذكر فيه الاكرم (القاضي صالح محمد محمود وكافة من

معه من الأهل القاطنين في البلد والمتفرقين في النواحي جميعا، وذكر فيه أيضا وقال (نعترف بالتقصير في حق المفقود لأنه عظيم قبيلتنا هنا وهناك)، وهذا التعبير كاف في أننا منهم وهم منا ونرجو ان نعيد هذا التواصل في المستقبل القريب.

وكان كثيرا ما يذكرون للزائرين لهم من جزيرة توتي وما حولها من المحس ان أهلهم محس جزيرة توتي تحركوا من هنا في قامي دون رسم الهاء او قاميك بالكاف وكثيرا ما سمعنا هذا الا اننا لم نعرف اسماء الذين رحلوا و متى كان ذلك، فقد اكتملت الفائدة بإشارة الوجود لجنس النوبة ببحر ابيض وجماعة المسلمين واللغة العربية قبل اكثر من الف سنة.

سوف أكتب عن أدبيات الرحلة بالتفصيل ثم أعود لسرد المعلومات التاريخية من الرواة ثم تدعيمها بالآثار والوثائق ومن ثم الخلوص الى نتائج ذلك كله لتدوين تأرخ المملكة الإسلامية للمحس موضوع البحث وذلك بعد مضاهاتها بما كتب عنها فى جميع المراجع المتاحة فالسودان وخارجه.

فى زيارة تاريخية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى الى أرض المحس بالشمال السودانى زار كل من السيد/ محمد الأمين أحمد على (سيد الحوش) وكمال الدين أحمد الشيخ البشير الفضل (كاتب هذا البحث) ومحمد سيد حسن أرباب وأبو عامر الطاهر محمد الطاهر الكنزى من رواة ومهتمى تدوين تاريخ المحس فى جزيرة توتي بعض مناطق المحس بالشمالية ولا ننسى أخواننا من كبار المهتمين والذين

أخرتهم عن الزيارة ظروف قاهرة وهم الأستاذ / قيس ابراهيم أحمد على والسيد / حمزة قاسم موسى والسيد اسحق محمد ابراهيم النور والسيد حافظ أحمد عبد الله .

هذ او قد كان برفقتنا السيد / محمد برى أحمد كمبال والسيد / عبد الهادى مك الناصر ادريس والسيد /مقبول عثمان محمد على وهم من المهتمين برواية تاريخ وأنساب المحس بالشمال من سلالة ملوك كوكا ومسقط رأس الأخير فى المنازل التابعة لقصر الملك عبد العزيز وقد جلس إليه في آخر عمره وسمع منه هو أكبر سناً لسابقيه.

وذلك فى غرة محرم من عام ١٤٣٠هجرية الموافق السابع والعشرين من شهر ديسمبر ٢٠٠٩ مواصلة للأرحام وتسجيلا لما يشاهدون وما يسمعون من أهلهم وأعيانهم بالشمال السودانى وهى دعوى للتواصل والتراحم حيث جاءت هذه الزيارة بعد حوالى تسعين عاما من سابقتها والتى كانت لمبايعة ومباركة تتويج الملك عبد العزيز بن الزبير بن دياب فى عام ١٩١٨ وقد كان ضمن وفدها الخال عبد الرحمن أحمد جميل الله والزيارة أيضا تمهيد للإجتماع المرتقب بين مشيخات المحس بالجنوب مع رصفائهم بالشمال ليتم بذلك اللقاءالإجتماع الثانى الذى يضم أكابر وعلماء المحس والذى سوف يكون بعد حوالى أكثر من ثلاثة قرون ونصف من الإجتماع الأول الذى كان مع الشيخ خوجلي ومحس الشمال بمعية بعض محس الوسط بجزيرة توتي .

لا يعلم مشاعر الزائرين الا من شاهد معهم تلك الصدور الحانية و العيون الباكية والأكف التى تعانقت لتحضن فلزة كبدهم توتي و

ان الود والترحاب الذى عاشه الزائرين فى كنف أهلهم فى الشمال جعلهم يشعرون كأنهم كانوا فى سفر وأن عودتهم منتظرة ومرتقبة بل شعرنا وكأننا فعلا عدنا من سفر طويل الى بلدنا التى كانت تغازلنا فى وأحلامنا و ان كل التعابير التى كنا نسمعها بعد العناق فى الحضن الدافىء لأهلنا كانت (انتووين تعالوا لينا محلكم فاضى) بل عبر شيخنا ابراهيم عبد الرزاق من أعيان دلقو بـ (تأخرتوا علينا) فأجابه سعادة يوسف الطاهر قرشى - (وهو من أعيان منطقة سيسب فضلا عن أنه معتمد محلية دلقو وهو الدعامة الفاعلة التى كان من شأنها انجاح هذه الزيارة بل كان معنا فى معظم برامجها وفى بعضها كان مضيفا) – أجاب بأن هناك مثل انجليزى مفاده بداية تنفيذ المشروع تعنى أنه فى وقته وقد استفدنا من السيد / يوسف الطاهر لسعة علمه وحسه العالى ونظرته الشاملة وقراءته لمستقبل مشرق للمحس بالمنطقة ولا ننسى أن نذكر فى هذا المقام السيد / عبد الماجد محمد خير فقير الضابط الادارى لوحدة دلقو ومن معهم فى الاهتمام والمشاركة فى تنفيذ برنامج شرق النيل هوووحدته الادارية المتفاهمة مما كان له الأثر الطيب فى النفوس وسوف يأتى دور وحدة دلقو فى البرنامج فيما بعد .

بدأ برنامج الزيارة فى يوم الأحد مساءا حيث عقدت أول جلسة للتفاكر وتبادل المعلومات وكانت بمنزل والد مضيف الزيارة الرئيسى محمد برى أحمد كمبال وهى مجموعة كبيرة بينهم السيد / شمس الدين فقيرى من أعيان سدلى والمرافقين بالإضافة للسادة عفيفى برى وأكرم دياب أرو وشريف الزين ماسى ونصر الدين عبد الحفيظ

وسيد شريف خطيب الماحي وفى صباح يوم الاثنين ٢محرم أدينا صلاة الصبح فى مسجد سدلى وتعرفنا فيه بأهل سدلى وقد تحدثنا فيه الى أهلنا موضحين سبب الزيارة وكان من بين الحاضرين السيد شمس الدين خبيرى أيضامع من قابلونا بالأمس وإضافة للسيد/ عكاشة حامد عكاشة ثم بعد تناول كوب الشاي بمنزل برى بن أحمد بن الحاكم كمبال بدأنا زيارتنا للآثار وفى معيتنا آدم حاج فكان الأثر الأول ويحق له أن يكون كذلك زيارة قبور الملك جامع وأبناءه الذين كان لهم الفضل فى تسجيل أقوى وأروع الانتصارات الإسلامية على مملكة سيسب المسيحية فى معركة حكيت لنا تفاصيلها والقلاع أو الدفوف كما يسميها أهلنا فى الشمال تقف شامخة وشاهدة على ذلك والمقبرة تقع الى الجنوب مباشرة من منزل مضيفنا .

ثم فى سدلى تناولنا القهوة مع مجموعة مقدرة من أعيان البلد وعلى رأسهم مضيفنا بمنزله العامر السيد/شمس الدين خبيرى من سلالة حبيب والأستاذ/ يوسف سر الختم محمد صالح من شدة وهومن سلالة آخر قاضي شريعة تابع لمملكة كوكا و السيد/ محمد على شريف الزين امام مسجد سدلى و الأستاذ/ الزبير عكاشة و الأستاذ/ صادق همد خيرى والأستاذ/أمين محمد نور والأستاذ/ أحمد زهر الدين شريف خطيب الماحي و الأستاذ أنور ناصر مك الناصر والسيد/ علاء الدين سعيد ابراهيم والسيد/عثمان عبدالله أبوبكر وغيرهم من كبار البلد .

توجهنا بعد ذلك الى المكان الذى تزرف فيه العيون و تدمى فيه القلوب الى قامى أو أقامو الى المنطقة التى هاجر منها أهالى جزيرة توتي

جنوبا وهى ترقد جنوب جبل سيسب وتبدو كأطلال قديمة ومساكن مهجورة من عدة قرون سالفة وبها طابية أو دف تحكى قصة حياة تلهب المشاعر حبا وحزنا على هذه الهجرة حيث لم تسمح نفوس أهلنا فى الشمال السودانى سكناها طمعا فى عودة أهلهم اليها مرة أخرى على مر الدهور ليضربوا بذلك أروع مثل فى التاريخ القديم والحديث للوفاء والحب وهذا كان ديدن من قابلنا من أهلنا اذ اتفقت عندهم عبارة واحدة فى ختام السلام وهى : (انتوا وين تعالوا لينا محلكم فاضى) وقد هالنا الموقع وجعلنا ننظر الى بعضنا البعض وكل منا آخذ بتفكير عميق لا يسطر و لا يوصف بل يعاش فقط و من هذا الموقع خرجنا مستثقلى الخطا من حنين كان يجذبنا الى مسقط رؤس الأجداد ففى احدى هذه الأطلال كان جدي وجدتى مع الأهل بل كانوا أطفال يمرحون فى تلك الربوع الحانية ما أحلاها من لحظات و ما أقساها من مفارقات تلك التى تجمع بين الحزن والفرح والحنين والأسى.

توجهنا بعد هذا الموقع الى دار السيد/ بكرى الطيب الطاهر الذى لم نره الا وشيئا فى يده لضيافتنا وتلك شيمة من قابلنا من أهلنا وفى معيته فى الدار سعادة / يوسف الطاهر قرشى وهو من أعيان هذه المنطقة ووالده هو القاضي الشرعى الأسبق وقد اجتمعنا أيضا على مائدة الافطار مع بقية أهل المنطقة ومنهم السادة/محمد الأمين عبد الواحد و خيرى شريف على و بدر الدين سيد و تاج السر قرشى و بعد تبادل المعلومات . توجهنا مباشرة لصعود حبل سيسب وفى سفح الجبل عالم آخر لو كان هو المعلم الوحيد فى هذه المنطقة لشدت

اليه رحال العلماء والسياح وقد شاهدنا أساس قصر مملكة سيسب المسيحية والكنيسة التى تحولت الى مسجد ليكون أول مسجد فى مملكة المحس "الخزرج" الإسلامية أحفاد الملك جامع وبعد جولة كاملة وشرح وافى شمل طريقة تتويج ملوك المحس المسلمين نزلنا من الجبل ميممين الشطر الى مدينة اخناتون الأثرية والتى لازالت بكرا من حيث التنقيب وبها أعمدة شاهقة هى بقايا معبد وبجانبها مدينة مدفونة والمنطقة عموما بها أكثرمن عشرة دفوف (قلاع) لملوك المحس أبناء الملك جامع بالإضافة للذى يوجد بكوكا فذاك شيىء آخر وابداع انسانى وحضرى يمثل نسيج وحده يأتى ذكره فى حينه.

ذا وقد أطلعنا السيد المعتمد يوسف الطاهر قرشى على خطة لعمل البنيات الأساسية لكل المناطق الأثرية للمملكة القديمة والحديثة لتكون المنطقة قبلة العلماء والباحثون والسياح من السودان ودول العالم الأخرى وقد أمنا على ذلك وسوف يرى منا ما يسره ان شاء الله فى المستقبل القريب.

ثم بعد زيارة مدينة اخناتون الأثرية توجهنا الى أرتمرى التابعة للملك جامع واكتفينا أن نراها من الضفاف الغربية وعلى حسب البرنامج فان هناك موعد آخر وتحسبا لدخول كوكا قبل مغيب الشمس لنتمكن من التصوير سمح لنا مضيفونا فى أرتمرى ونحن بالطريق الموصل لها وهو طريق مشرع الملك أو بالرطانة طريق (جامى نوتى) بالمواصلة وقد كان معنا منهم الأستاذان الزبير عكاشة وصادق همد وقد أفاضا فى شرح دور الدف القائم قبالة أرتمرى فى حرب ملكنا المنتصر جامع مع سيسب المسيحية.

من هناك تحركنا الى شدة التى قابلنا مضيفونا فيها بالترحاب خارج الداروهنهم السيد/ مسعود عوض محمود على و السيد/ أمين محمد نور و السيد / عثمان عبدالله آدم ومجموعة من الأعيان و الأخوان وكان التعارف وتبادل المعلومات على مائدة الغداء.

توجهنا بعدها عصرا الى منطقة الترعة والتى أذهلنا جمالها وبخاصة أن جزيرة أرتى موقا التى كان منها معنا بكرى محمد حاج بدرى وهى على الضفة الشرقية من منطقة الترعة و تشكل معها أجمل ما رئينا من مناظر فى حياتنا وقد قابلنا في الترعة من الأهل والأعيان السيد/ عبدالسلام فقيرى و السيد / فقير شرف الدين والسيد صالح عبد الحفيظ مع مرافقنا من شدة الى كوكا عمنا الظريف السيد عثمان شكور وغيرهم وكعادتنا تبادلنا معهم المعلومات .

ثم توجهنا الى منطقة كوكا مقر آخر ملوك المحس و ان هذه المنطقة خاصة وجميع مناطق أبناء الملك جامع عامة تعد من أجمل المناطق الأثرية السودانية اذ يرقد بمدافن منطقة كوكا جميع ملوك كوكا وبها قصر الملك عبد العزيز بن الملك الزبير بن الملك دياب وبالرغم من أن القصر مبني من اللبن الا أنك حين تدخله تحس بالمهابة كأنك فى رحاب الملك ومع ذلك يحتاج للصيانة والترميم ليكون شاهدا على عصر من عصور الممالك الإسلامية فى السودان والذى كان لها الأثر الكبير على ما بعدها ، ثم صلينا المغرب فى المسجد الملحق بالقصر والذى وجدنا مكتوبا فيه تأسس عام ١٢٦٨هجرية وتبادلنا الكلمات تمهيدا لإجتماعنا بأهل كوكا وأعيانها والذى كان بمنزل السيد/عبد الحليم فرح محمد على دياب أحد أعيان المنطقة وكان فى معيتنا

السيد المعتمد / يوسف الطاهر قرشى ابن توتي و ابن شيخ ابراهيم العباس شيخ القراء بجزيرة توتي والذى كان طالبا فى حوزته و أيضا من الذين كنا فى ضيافتهم السيد دياب كمبال والسيد / فضل عباس أرباب وقد كان بالإجتماع شرح وافى من السيد / المعتمد ورؤاه المستقبلية للمنطقة وقد تبادلنا الآراء فى حميمية وشوق للمشاريع المطروحة والتى من شأنها تنمية المنطقة وكذلك علاقاتنا بهم فى الشمال وأيضا التواصل والتعاضد من أجل المنطقة ومن أجل سودان جميل يكون قبلة للعالم أجمع.

لنختم بذلك زيارتنا للضفة الغربية للنيل ولنستعد لجولة اليوم الثانى والليلة الثالثة.

بدأ اليوم الثانى بصلاة الصبح فى مسجد سدلى وتناولنا الشاى بمنزل ضيافتنا ثم القهوة كانت مع شقيق مضيفنا الرئيسى كمبال بري وأيضا بمنزل السيد / محمد على شريف امام مسجد سدلى ومن ثم تحركنا فى طريق العودة لنبدأ من وحدة دلقو والتى فيها تم افادتنا بالاقسام الجغرافية التابعة لها وأسماء المناطق من السيد ماجد محمد خير الضابط الادارى الهمام وبعدها تحركنا لزيارة محكمة دلقو فى معية السيد / يوسف الطاهر قرشى معتمد المحلية وهناك شرحنا لسعادة القاضي مرامى الزيارة وقد طلبنا منه الإطلاع على المنازعات القديمة لالتقاط بعض الأسماء لمقارنتها بالأسماء التى فى أنسابنا الا أنه اعتذر عن ذلك وسمح لنا بالنظر فقط دون تدوين في بعض الدفاتر القديمة وذلك تطبيقا لقانون ومن خلالها تمكنا من معرفة كثير من الأسماء القديمة والمتكررة.

وقد استفدنا من الإجتماع كثيرا وقد شملت الزيارة فى دلقو دور الحكومة التى بناها الانجليز ومنها منزل المأمور والمنزل الذى ولد به السيد/ محمد نجيب الرئيس المصرى الأسبق وهو الاستراحة الآن ثم بدلقو كانت الزيارة هذه المرة للشيخ ابراهيم عبد الرزاق بمنزله على مائدة الافطار وبمعيتنا السيد/يوسف الطاهر وأعضاء وحدة دلقو وقد استفدنا كثيرا من هذه الزيارة وقد ودعنا باكيا .

وبهذه الزيارة ودعنا السيد/ المعتمد الذى طلب من السائق أن يوصلنا الى دنقلا و أعضاء وحدة دلقو الادارية له منا ولهم جميعا الشكر والعرفان . على أمل اللقاء معهم فى إجتماعنا الكبير القادم باذن الله والذى نحن وزيارتنا جزء منه. توجهنا الى منطقة مشيرفة وبرفقتنا الحارث عبد الرزاق لزيارة قبة الشيخ مرزوق وهذه المنطقة محازية لمنطقة قامى من الشرق وتعتبر امتداد لها فى سالف الأوان ثم كان مضيفنا هذه المرة بمشيرفة محمد أحمد سيدى بمنزله على مائدة الغداء وهو أحد أعيان المنطقة وفى داره تبادلنا المعلومات كعادتنا فى كل المناطق التى زرناها وكانت هذه المرة مع السيد/ أيوب بيه والسيد/ سعد الدين صالح سروج وبعد الجولة التى قمنا بها فى الدف الشامخ بالمنطقة توجهنا الى فريق مرورا بكدا موسى و منطقة تعرف بكدرمة بها منطقة أخرى تعرف ب سعد الله وبهذه المنطقة غرفة صغيرة متهدمة يقال بأنها خلوة للشيخ ادريس بن الأرباب كما مررنا بمنطقة أخرى فى طريق الذهاب وهى جبل على برسى والذي مررنا به بغرب النيل قبل ساعات من وصولنا لهذه المنطقة عند قدومنا وقنديل و بطريق العودة باتجاه فريق شاهدنا من على البعد

منطقة الخلاصاب ومزين وسبو وجدي و مروراً على منطقة كجبار دخلنا فريق قبيل المغرب معتذرين لأنهم كانوا باتظارنا على مائدة الغداء وكان الإجتماع والضيافة بعد صلاة المغرب فى مسجد الشيخ تاج الختم خيرى وكان من كبار المضيفين السادة عبد الرحمن وعبد الرحيم وعصام تاج الختم خيرى وجمع من الأهل وفى تبادل المعلومات أضاف لنا جدنا عبد الرحمن اسما آخر لمنطقة قامي وهوأنه سمع من الأجداد أنها كانت تعرف بمنطقة سعد أو سعد الله وكانت هذه من أسعد ما سمعنا من معلومات اذ تشكل هذه المعلومة اضاءة لطيفة فى كون أنه الجد الأول لأهالى جزيرة توتي ومعه أيضا عمه الملك مكن.

ثم ختمنا زيارتنا متوجهين الى مدينة دنقلا وهناك كنا فى ضيافة الأستاذ / نصر عبد الله نصر آدم حاج بمنزل الأستاذ / أحمد المعز محمد حامد الذى كان خارج المنطقة وذلك على العشاء والمبيت بمنزله العامر وهو من منطقة أرتمرى وسدلى من أحفاد الملك ناصر ثم أدينا صلاة الصبح فى مسجد مدرسة دنقلا الثانوية النموذجية وقد أستاذن مرافقنا السيد محمد برى أحمد كمبال فى تنوير الطلبة بغرض ومرامى الزيارة وطلب من الجميع أن من يعثر أو بحوزت عائلته شجرة نسب أو وثيقة بها رواية تاريخية أن يسلمها لإدارة المدرسة ومن بعد تناول الشاى بمنزل مضيفنا غفلنا راجعين الى الديار وفى عقولنا وأفئدتنا رحلة تاريخية لا تنسى تكون باقية فى أجيالنا ويا لها من ذكرى .

ندعو بذلك كل الأكاديميين المتخصصين فى المادة وفى رصيفاتها تحليل المعلومات التى سوف يفرد لها تقرير خاص بعد الإجتماع الجامع القادم ان شاءالله ونذكر منهم البروفسر على عثمان محمد صالح والدكتور يحيى فضل طاهر والبروفسر عزالدين عمر أحمد محمد موسى وعلماؤنا كثر والحمد لله وكلنا أمل أن تكون زيارتنا قد أسهمت و أسست لإجتماع محس الجنوب بالشمال فى وقت قريب قادم والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات. وقد وصفت الزيارة بالتفصيل لأنها أتت بعد ردحا من الزمان ولكى أنقل لمن لم يرى المنطقة الصورة الدقيقة لها . و نتائج الزيارة على ضؤ المعلومات المعروفة أو المعطاة والمعلومات المكتسبة من الزيارة التاريخية سوف تضم الى نتائج البحث فى نهايته.

الباب السادس

النتائج العامة للبحث أو الكتاب



أولاً

أن المحس بهذا الاسم من القبائل النوبية القديمة وكانت مملكتها معروفة لترهاقا أى أنها كانت قائمة قبل الميلاد أن المحس الذين تكلمنا عنهم هم العرب الذين تزاوجوا مع النوبة المحس وهم ليسوا من "الخزرج" فقط فهناك الجوابرة والاشراف وغيرهم من القبائل العربية وقد أسلم النوبيين بعد ذلك وتعرب جزء منهم بالنسب وآخر بالإسلام والعربية وظل العرب عرب ينتسبون للمحس من جهة الأم حتى انصهر الجميع مع بعضهم البعض فى العربية والإسلام مع احتفاظ الذين ظلوا فى مناطقهم الأولى فى الشمالية بلغة النوبة محسية كانت أم غيرها من لغات النوبة مع العربية الى الآن.

ثانياً

عدم ذكر رواة المحس فى الشمالية لإبنيْ الملك جامع الاثنين الملك مكن والملك سعد يوحى بالرحول المبكر لهما والذى تمثل فى أحفادهم المباشرين وبنى عمومتهم من المنطقة الشمالية جنوبا الى أواسط السودان وأطرافه المختلفة وذلك فى زمن لا أحسبه يقل عن ١٢٠٠ أو يزيد على ١٢٥٠ الا قليلا . وهذا القول قال به اثنين من اساتذتنا وكل منهما له دليل يختلف عن الآخر وهما الدكتور عمر يوسف الطيب والأستاذ قيس ابراهيم أحمد على .وأنا من مناصريهم لما ذكرت من الاسباب ضمن الهذا البحث .

وأحسب أن هناك وفد مقدمة قد سبق ذلك ولا أستبعده ربما كان من أبناء عمومة السكراب وذلك لمشاهدة العالم الجغرافي أحمد

بن حوقل والتي كانت في القرن الرابع الهجري ولا ندري متى تم ذلك ومن هم وفد المقدمة الا أنه بالضرورة أنهم من نفس المنطقة وتربطهم العلاقة النسبية الواحدة لانضمام من ذكرنا سابقاً اليهم في نفس المنطقة رغم سؤ خيارهم في ذلك الزمن وأعتقد أنه لو أتيح لعلماء الآثار العمل في هذه المنطقة ربما تضيء نتائجهم ما غم على غيرهم من العلماء .

ثالثاً

تأكدنا تماما أننا من هناك من نفس المنطقة التى زرناها وبالتحديد منطقة دلقو حيث بالغرب منها بالضفة الأخرى كانت منطقة قاموا أو قاما وبسؤال شيخ فى الثمانين من عمره عنها قال أن جده قال ان جدنا قال انهم كانوا يسمون منطقة قاموا محل سعد وحيث وجدنا أن نظام التقسيم القديم هو أن يكون لكل ابن من أبناء الملك جامع منطقة وما يقابلها من الضفة الأخرى من النيل فان ما يقابل منطقة سعد هى منطقة دلقو بالشرق وأن الشيخ الذى كنا فى ضيافته بالشرق هو الشيخ ابراهيم عبد الرزاق وبالصدفة يطابق اسم شيخنا ابراهيم عبد الرزاق رحمه الله بالشرق من جزيرة توتي وعندما رمقنا ببصره بكى وقال ((الوليد المعاكم دا كان دخل جوه بيتى لا أستطيع فرزه من أولادى)) ويقصد محمد سيد حسن أرباب والشاهد أن هذه الارض تضم مرقد أو بيان الشيخ مرزوق وهو جدنا مرزوق ود سعد وبها أيضا منطقة سميت بـ مشيرفة ومشيرف ومرزوق ود سعد هم من جدود أهالى توتي وشمبات والعيلفون وكل مناطق المحس بالوسط .

رابعاً

هناك أمر هام جداً وهو يوثق ويزيد من يقيننا بأننا من هناك وهو الخطاب الذى كتبه الفكى الهادى بن الخليفة محمد مضوى فى عام١٣٣٠هجرية الى الملك عبد العزيز فى عزاء والده الملك زبير وذلك قبل تنصيبه ملكاً بعده وهذا نصه حيث لم نفقد منه الا كلمة واحدة فى أول سطر فيه ومما يؤكد انتمائنا نحن محس توتي الى محس مملكة السكراب والمؤسس الثانى الملك جامع والذى انتهى ملكه بالملك عبد العزيز بن الملك الزبير نص البرقية التى كتبت فى عام ١٣٣٠ هجرية قبل مائة عام فى وفاة الملك الزبير والتى تنص على الآتي :-

((حضرة الأجلاء الفضلاء المكرمين بكل -- لأكرم محمد على حسن الملك دياب وعبد العزيز بن الملك زبير ودياب بن الملك زبير وكافة اخوان وأبناء الملك زبير والأخ الأكرم القاضي صالح محمد محمود وكافة من معهم من الأهل القاطنين بالبلد والمتفرقين بالنواحى جميعاً حفظهم الله وتولانا واياهم آمين

من بعد اهداء ما يليق بجنابكم الرفيع من جزيل السلام ووافرات التحيات والاكرام ثم نعلمكم أنه ورد لنا جواب من مدينة أم درمان باسم حامد زبير بموجب تلغراف ورد لى باسم عبد العزيز بن الملك زبير مقتضاه أن والده الملك زبير قد توفى على رحمة مولاه. فعظمت مصيبته على عموم الأهل جميعاً فقمنا من جزيرة توتي بجمعنا وحضرنا بأم درمان بمحل حامد زبير المذكور فبحسب

الحال من عظم المصيبة صرنا نعود الى محل الفراش الى يوم رفع الفاتحة ومع ذلك نعترف بالتقصير فى حق المفقود لأنه عظيم قبيلتنا هنا وهناك وما لنا الا أن نقول بلسان التفويض الى الملك الفعال لما يريد انا لله وانا اليه راجعون أجارنا فى مصيبتنا واياكم

توقيع الهادي محمد الفكي مضوي والعمدة أحمد ابراهيم
١٣٣٠هجرية

خامساً

يسند ذلك ويؤكده وجود كثير من العادات التي تتطبق مع ما عندنا وهي كثيرة ويمكن أن يفرد لها بحث في المستقبل مثلما ذكرت عن أثرهم الديموغرافي في الوسط ومن أهمها اعتمادهم في طعام المناسبات على اللحوم وشراب الشربوت وهو عصير من التمر (بحيث يوضع التمر في الماء لمدة ثلاثة أيام) ويكون سايقاً فاذا كان اليوم الرابع صار ذاك العصير (دكا) ويكون هذا النوع بين مسكرٍ وغير مسكر وأن علاج هذا النوع معروفُ لديهم ولدينا وهو أن يفرك فيه الحرجل (نبات طبي معروف) باليدين فتزول صفة أنه مسكر ثم بعد اليوم الخامس يصير (دكاي) وهو شراب مسكر وهناك غير ذلك من العادات المشتركة ولوقت قريب كان أهلنا يضعون لحم الضحية في اليوم الثاني كله في الصاج على النار ولمدة تتراوح بين ثلاثة الى خمسة أيام وقلما تجد بيت بغير عصير الشربوت في عيد الأضحى .

سادساً

أن قدوم المحس الى أواسط السودان فى جماعة جهادية ودعوية والإستقرار فى منطقة التقاء النيلين وشرق نهر النيل والنيل الأزرق كان فى أو قبل أواسط القرن الثالث عشر وان إستقرار الحمدلاب أبناء حمد بن مشيرف بن زايد بن عجم بن زايد ومحمد وحاج أبناء عبد الله ود سليمان فى هذه المنطقة دليل على ذلك وأن إستقرارهم في شمبات والصبابى كان قبل دخولهم جزيرة توتي وبر الخرطوم بزمن مقدر وليس بالقصير . وهناك أسباب منطقية تجعل من وجود وفد مقدمة في القرن الرابع الهجري وخاصة بمنطقة الصبابي ممكناً حسب مشاهدات وشهادة الرحالة الجغرافي أحمد بن حوقل في كتابه المتقدم ذكره (صورة الأرض).

سابعاً:

أن المجموعة العربية المتحدة المجاهدة من الولايات العربية الإسلامية النيلية ومن البطانة ومن شرق وغرب السودان هم الذين أسقطوا علوة في بداية القرن الرابع عشر الميلادي و أن دولة الفونج هى التى قامت بتدميرها نهائيا في أواسط القرن السادس عشر الميلادي وترحيلهم منها الى العاصمة الجديدة سنار لفرض السلطة السياسية دون منافس حيث كانت سوبا بمبانيها وسكانها لازالت تشكل منافساً لا يستهان به للدولة الجديدة بل إن ما تم أخذه من المسيحيين الذين كانوا موجودون في سوبا زمن التدمير هو من باب أخذ أموال الناس بالباطل لأنه لا يدخل في الغنيمة، والذى تجد أن الشيخ إدريس بن محمد الأرباب رحمه

الله صرح بذلك وسجل التأريخ تصريحه عندما أراد الفونج منحه من هذه البساتين والأراضي قوله (أن هذا المال مغصوب وهو لن يشترك في ذلك بأخذه كهدية من الفونج له) (الطبقات) وهذا ليس لأن الشيخ إدريس رحمه الله ورع فقط بل هو شهادة تعضد ما أوردناه سابقاً .

علماً بأننا لا نشك أن شق العبدلاب كان نتاجا لتلك المجموعات العربية التي أسقطت علوة حيث قامت بتأييد عبد الله جماع ومبايعته كملك عربي مسلم عليها وأحسبه سمى جماعا لجمعه هذه المجموعات العربية الإسلامية تحت قيادته .

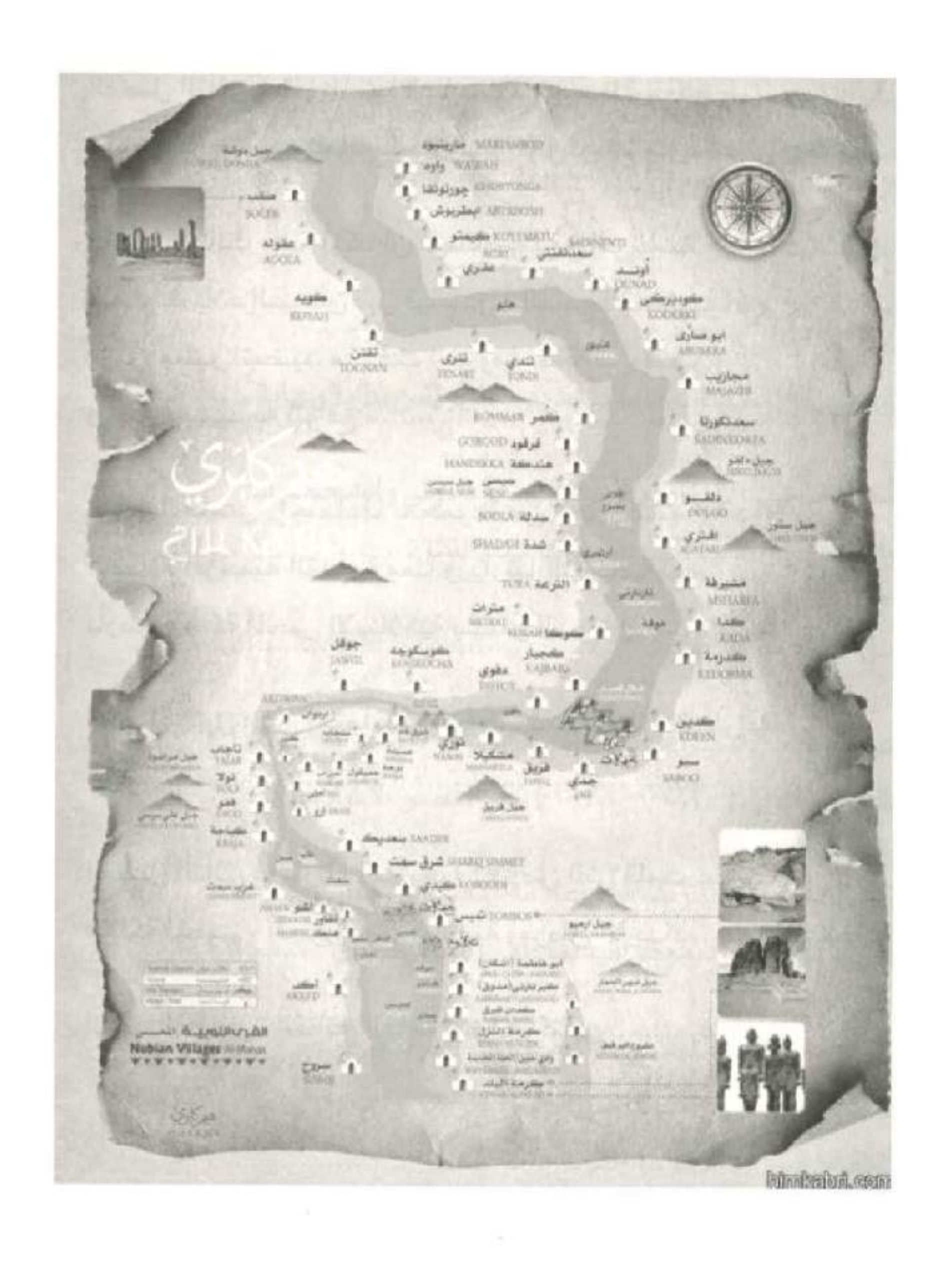
ثامناً

أن للمحس اليد الطولى فى انشاء مدينة الخرطوم عاصمة البلاد السودانية وأن شوارعها الرئيسية التى ارتكزت عليها كانت منحة منهم للوطن لأنها كانت بلا عوض وكذلك رصفاؤهم من الجعليين الجموعية والدرايسة الذين كانوا يقيمون غربي الضفة الجنوبية من النيل الأزرق بجهة المقرن .

تاسعاً

شحذ همم الباحثين للتصدى لكتابة تاريخنا الإسلامى فى الفترة من القرن التاسع وحتى القرن السادس عشر الميلادى حيث أن تاريخ السودان يكاد يكون مجهولاً لأكثر من ستة قرون مضت كنا نعيش فى رحابها الإسلام دعوة وعبادة وحكم وشريعة فأين!؟ وماذا كنا فيها!؟.

الموضوعات



رقم الإداع (٢٠١٤/٣٢١م)
ردمك ٦-٢٠٨-٣-٩٩٩٤٢-٩٧٨ ISBN